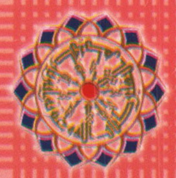


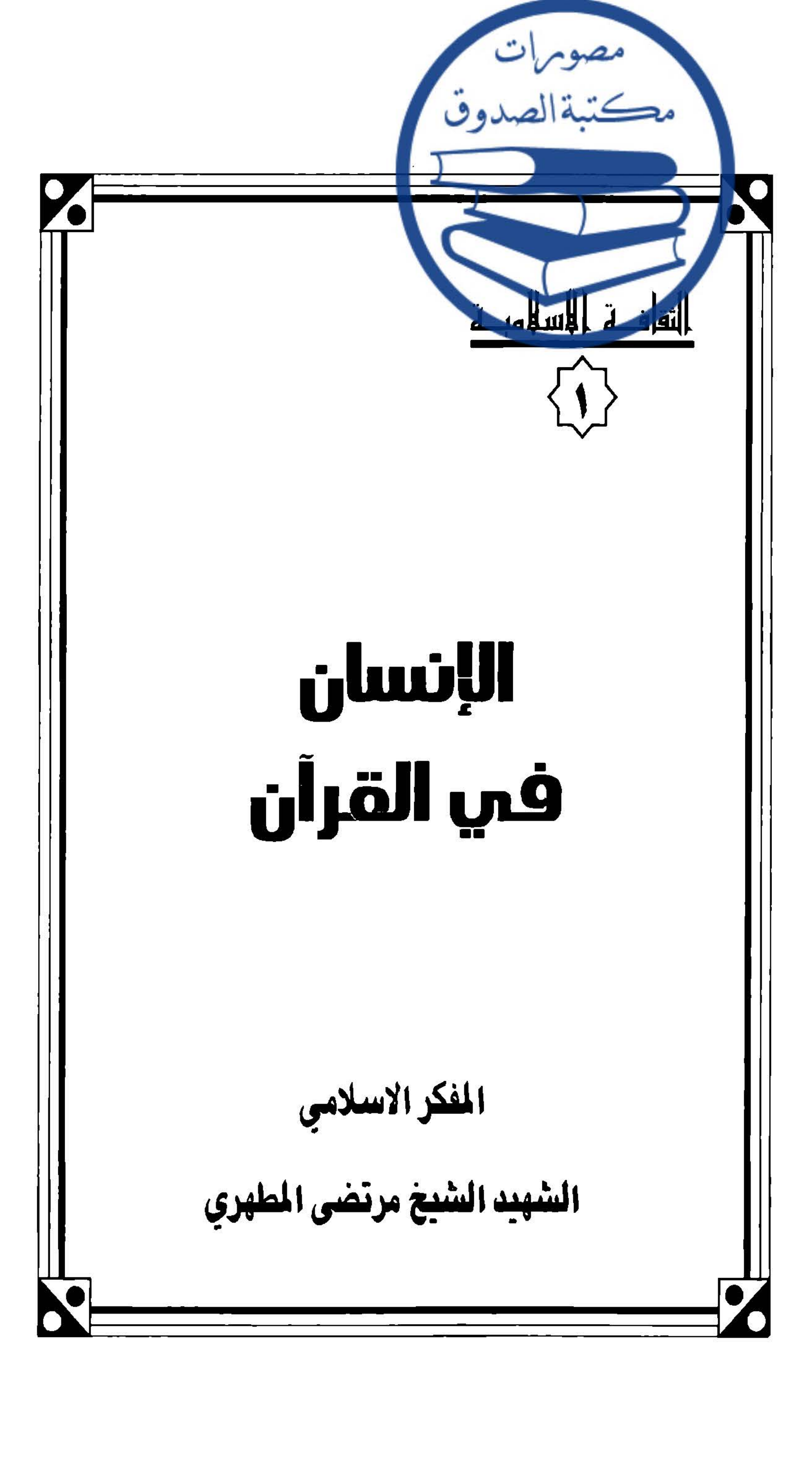
الثقافة الاسلامية

— ١ —

الإنسان في القرآن

المفكر الاسلامي

الشهيد الشيخ مرتضى المطهري



الثقافة الإسلامية

١

الإنسان في القرآن

المفكر الاسلامي

الشهيد الشيخ مرتضى المطهري

اسم الكتاب.............................الانسان في القرآن

المؤلف.................................الشهيد مرتضى المطهري

الطبعة الاولى..............................١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

المطبعة...........مطبعة مجمع اهل البيت(ع) / النجف الاشرف



أصبحنا اليوم نعيش في عالم، ينفتح بعضه على بعض، في الاقتصاد، والسياسة، والإعلام، والثقافة، وغيرها من شؤون الإنسان.

وفي هذا العالم خير وشرّ. . . وبحكم هذا الانفتاح لا نسلم من الشرّ الذي بأيدي الناس، مهما حاولنا أن نحجز مجتمعنا وأنفسنا. . . أبناءنا وبناتنا. وليس من سبيل إلى أن نحمي أنفسنا من هذا الغزو الثقافي الواسع بالحواجز والوسائل المادية المعروفة، والسبيل الوحيد الذي جعله الله تعالى وقاية للإنسان من هذه الغارة الثقافية الواسعة هو الوعي والمعرفة والثقافة أولاً والتقوى ثانياً.

وهما قلعتان تحميان من يحتمي بهما ـ إذا كانا مع بعض (الثقافة والتقوى معا).

والغاية من هذه السلسلة من الإصدارات الدورية هي توفير المعرفة والثقافة الإسلامية إن شاء الله.

وتجمع هذه الإصدارات بين مهمتي تثقيف العقول وتهذيب السلوك والنفوس.

وأكثر ما نبتغيه في هذه السلسلة هو تحضير هذا الغذاء الفكري والسلوكي والخلقي للجيل الصاعد الذي يتوجّب علينا أن نحميه من الموجات الثقافية والسلوكية العارمة المنحرفة، ونقدم له ما يقوّم عقله وسلوكه، إن شاء الله.

ونسعى أن نيسّر لهذا الجيل في هذه السلسلة القراءة الإسلامية بلغة ميسّرة، قدر الإمكان، يفهمها وينشدّ إليها ويتفاعل معها.

وسوف ننتقي في هذه السلسلة إن شاء الله مختارات من الفكر والثقافة الإسلامية، اجتهدنا جهدنا في انتقائها واختيارها، لتعين هذا الجيل على أن يأخذ ثقافته من معين صافٍ، قدر الإمكان، يحفظ عقله وسلوكه من الانحراف مع التيارات المنحرفة الفاسدة التي دخلت بلادنا وبيوتنا، رغما علينا.

نسأل الله تعالى أن يعيننا على تحقيق هذه الغاية الصعبة ويهبنا من لدنه توفيقاً وتأييداً وتسديداً. إنه سميع الدعاء مجيب.

مجمع أهل البيت (ع)/ العراق
في ١ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ

الإنسان في النظرة الإسلامية للعالم

للإنسان قصة عجيبة في النظرة الإسلامية للعالم، لم يكن إنسان الإسلام حيواناً مستقيم القامة له اضافر عريضة ويمشي على قدمين ويتكلم فقط، إن هذا الموجود – في نظر القرآن- أعمق وأكثر غموضاً من أن يمكن تعريفه بهذه الكلمات.

فقد مدح القرآن الإنسان وأثنى عليه كثيراً، وذمّه ووبخه أيضا فأسمى المدائح وأسوأ المذام هي ما قالها القرآن بحق الإنسان، فضّله على السماء والأرض والملائكة، ووضعه على مستوى الأنعام. فالإنسان – من نظر القرآن – موجود له القدرة علي تسخير عالمه واستخدام الملائكة لنفسه ويمكن أن ينزل إلى أسفل سافلين .

وهذا هو الإنسان الذي عليه أن يقرر مصيره النهائي. ونبدأ حديثنا عن مدح الإنسان في القرآن تحت عنوان قيم الإنسان.

قيم الإنسان:

١- الإنسان خليفة الله في الأرض : (وإذ قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون)(١).

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما أتيكم)(٢).

٢- إن ظرفية الإنسان العلمية هي اكبر ظرفية يمكن إن تكون لمخلوق: (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين)(٣).

---

(١) سورة البقرة – الآية ٣٠

(٢) سورة الأنعام – الآية ١٦٥

(٣) سورة البقرة – الآية ٣١- ٣٣

٣- له فطرة تعرف الله، يعي ربه في أعماق وجدانه، وأن كل الشكوك والجحود أمراض وانحرافات من جبلة الإنسان الأولى (وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...)(١)، (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها...)(٢).

٤- إن في جبلة الإنسان عنصر ملكوتي الهي بالإضافة إلى العناصر المادية الموجودة في كل الجماد والنبات والحيوان. فالإنسان مركب من الطبيعة ومما وراء الطبيعة، من المادة والمعنى، من الجسم والروح: (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سويه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) (٣)

٥- إن خلقة الإنسان مدروسة، ولم تكن صدفة، والإنسان موجود مصطفى ومنتخب، (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) (٤).

٦- وله شخصية حرة مستقلة، وهو أمين الله وله رسالة وعليه مسؤولية، وطلب منه إن يعمر الأرض بعمله وإبداعه، وان يختار احد الطريقين: السعادة أو الشقاء.

(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)(٥).

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) (٦).

---

(١) الأعراف - ١٢٦
(٢) سورة الروم – الآية ٣٠
(٣) السجدة – الآيات ٧،٨،٩
(٤) طه – الآية ١٢٢
(٥) سورة الأحزاب / الآية ٧٢.
(٦) سورة الدهر / الآيتان ٢ ، ٣

٧ـ يتمتع الإنسان بكرامة ذاتية وشرف ذاتي، فقد فضله الله على كثير من خلقه ثم يتفهم واقعه ويشعر به عندما يتفهم هذه الكرامة ويشعر بها. ويعتبر نفسه أسمى من الدناءات والرذائل والشهوات والقيود: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)(١).

٨ـ يتمتع بضمير أخلاقي يدرك القبيح والجميل بحكم الإلهام الفطري: (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)(٢).

٩ـ لا يهدأ إلا بذكر الله ولا نهاية لطلباته، ولايشبع من كل شيء يحصل عليه، إلا أن يتصل بذات الله الأبدية اللامحدودة: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)(٣)، (يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه)(٤).

١٠ـ خلقت نعم الأرض من أجل الإنسان: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)(٥)، (وسخر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً)(٦)، إذاً فله الحق بأن يتصرف بكل هذه النعم بصورة مشروعة.

١١ـ خلق الله الإنسان ليعبده ويطيعه. إذاً فواجبه إطاعة أمر الله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(٧).

١٢ـ انه لا يجد نفسه إلا بعبادة الله وإلا بذكر الله، وإذا نسى ربه نسى نفسه ولا يعرف من هو ولماذا؟ وماذا يجب أن يعمل وإلى أين

---

(١) سورة الإسراء / الآية ٧٠
(٢) سورة الشمس / الآيتان ٧، ٨
(٣) سورة الرعد الآية/ ٢٨
(٤) سورة الانشقاق / الآية ٦
(٥) سورة البقرة/ الآية ٢٩
(٦) سورة الجاثية / الآية ١٣
(٧) سورة الذاريات الآية ٥٦

يذهب؟ (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم)(١).

١٣- عندما يرحل عن هذا العالم، ويندلع عنه ستار البدن الذي هو حجاب الروح يتضح له العديد من الحقائق التي تكون اليوم عليه خفية: (فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد)(٢).

١٤- لم يعمل للقضايا المادية فحسب، ولم تكن حاجات الحياة المادية دافعه الوحيد، فهو يتحركَ ويتحمس للغايات السامية أحياناً، وربما لا يطلب من حركته وسعيه شيئاً سوى رضا الله: (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية)(٣). (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)(٤).

وبناء على ما قيل، فالإنسان في نظر القرآن موجود مصطفى من قبل الله، وخليفته في الأرض، نصفه ملكوتي ونصفه مادي، له فطرة معرفة الله، حر، مستقل، أمين الله، ومسؤول عن نفسه والعالم، مسيطر على الطبيعة والأرض والسماء، ملهم بالخير والشر، يبدأ وجوده من الضعف والعجز ويسير نحو القوة والكمال ويسمو ولا يهدأ إلا في حضيرة القدس الإلهي وبذكره، وظرفتة العلمية والعملية غير محدودة، يتمتع بشرف وكرامة ذاتية، لا صبغة مادية لدوافعه أحياناً، له حق التصرف المشروع بالنعم التي وهبها الله تعالى له ولكن عليه واجبا أمام الله.

ضد القيم:

وبنفس الوقت فإن هذا الموجود أصبح موضع أكبر ملامة وتقريع

---

(١) سورة الحشر /الآية ١٨

(٢) سورة ق / الآية ٢٢

(٣) سورة الفجر/ ٢٨

(٤) سورة التوبة / الآية ٧٢

في القرآن: (انه كان ظلوماً جهولاً)(١)، (ان الإنسان لكفور)(٢) (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)(٣)، (وكان الإنسان عجولا)(٤)، (وإذ مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه...)(٥)، (وكان الإنسان قتوراً)(٦)، (وكان الإنسان اكثر شيء جدلاً)(٧)، (إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا)(٨).

قبيح أم جميل:

كيف هو؟ هل إن الإنسان في نظر القرآن موجود جميل أم قبيح، وذلك جميل جداً وقبيح جداً هل إن للإنسان جبلتين: نصف من جبلته نور، ونصف ظلام؟ كيف هو والقرآن يمدحه غاية المدح ويذمه غاية الذم؟!.

والحقيقة إن هذا المدح والذم لم يكن لأن الإنسان موجود ذو جبلتين. نصف من جبلته موضع مدح والنصف الآخر موضع ذم، إن نظر القرآن في أن الإنسان يحتوي على جميع الكمالانت بالقوة، وعليه أن يأتي بها إلى الفعلية وهذا هو الذي يجب أن يكون باني نفسه ومعمارها والشرط الرئيسي لوصول الإنسان إلى الكمالات التي يمتلكها بالقوة هو (الإيمان).

وينبع من هذا الإيمان التقوى والعمل الصالح والسعي في سبيل الله،

---

(١) سورة الأحزاب/ الآية ٧٢
(٢) سورة الحج/ الآية ٦٦
(٣) سورة العلق / الآية ٧
(٤) سورة الإسراء/ الآية ١١
(٥) سورة يونس / الآية ١٢
(٦) سورة الإسراء/ الآية ١٥٥
(٧) سورة الكهف/ الآية ٥٤
(٨) سورة المعراج/ الآيات ١٩- ٢١

وبواسطة الإيمان يخرج العلم من كونه آلة ضارة في يد النفس الأمارة إلى كونه آلة مفيدة.

إذاً فالإنسان الحقيقي – الذي هو خليفة الله. مسجود الملائكة، وكل شيء من اجله وبالتالي صاحب الكمالات الإنسانية – إنسان زائداً الإيمان، لا إنسان بلا إيمان.

فالإنسان بلا إيمان ناقص، ومثل هذا الإنسان حريص، سفاك، وبخيل ومقتر، كافر، وأضل من الحيوان.

وقد جاءت في القرآن آيات توضح إن الإنسان الممدوح أي إنسان هو؟ والإنسان المذموم أي إنسان هو؟ ويستنتج من هذه الآيات إن الإنسان الفاقد الإيمان المنفصل عن الله لم يكن إنسانا واقعياً، فالإنسان الذي يتصل بالحقيقة التي يهدأ عن طريق إيمانه بها وذكرها يمتلك جميع الكمالات، وإذا انفصل عن تلك الحقيقة أي الله، يشبه شجرة قد انفصلت عن جذورها ونذكر آيتين مثالاً لذلك:

(والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)(١).

(ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل...)(٢)

موجود ذو أبعاد:

ويتضح مما قيل أن الإنسان مع كل وجوهه المشتركة مع سائر الكائنات الحية قد حصل له فاصل كبير معها، فهو موجود (مادي معنوي) ومع أن له وجوه مشتركه كثيرة مع سائر الكائنات الحية، فإن له عدداً من الفروق الرئيسية المعمقة معها بحيث يهب له كل منها بعداً منفصلاً تعتبر سداة منفصلة في نسج وجوده، وتتلخص هذه الفروق في

(١) سورة العصر

(٢) سورة الأنعام / الآية ١٧٩

ثلاث نواحي:

١ـناحية الإدراك واكتشاف ذاته والعالم.

٢ـناحية الجاذبات التي تحيط بالإنسان.

٣ـناحية كيفية تأثره بالجاذبات واختيارها.

أما من ناحية الإدراك وكشف العالم. ان حواس الحيوان هي الطريق والوسيلة لوعي الحيوان بالعالم، والإنسان يشترك مع الحيوانات الأخرى بهذه الناحية وربما يكون بعض الحيوانات أقوى منه في هذه الجهة أحياناً، فالوعي والمعرفة التي تهبها الحواس لكل من الإنسان أو الحيوان ظاهرية وساذجة، ولم تنفذ إلى عمق ماهية الأشياء وذاتها وعلاقاتها المنطقية.

ولكن قوى أخرى توجد لدى الإنسان لاكتشاف ذاته والعالم لا توجد في الكائنات الحية الأخرى وتلك هي قوة التعقل الغامضة.

فالإنسان يكتشف بقوة التعقل قوانين العالم الكلية، ويستخدم الطبيعة بصورة عملية ويجعلها تحت تصرفه على أساس معرفتة الكلية للعالم واكتشاف قوانين الطبيعة الكلية.

وقد أشير في البحوث المارة أيضا إلى هذا النوع من المعرفة التي هي من مميزات الإنسان، وقد قلنا، إن ميكانيكية المعرفة التعقلية هي من أعوص ميكانيكيات وجود الإنسان، وان نفس هذه الميكانيكية العويصة لو يحافظ عليها بصورة دقيقة تفتح مدخلاً عجيباً لمعرفة الإنسان نفسه، والإنسان يكتشف بهذا النوع من المعرفة كثيراً من الحقائق التي لا صلة لها بالحواس مباشرة. فمعرفة الإنسان لما وراء المحسوسات لاسيما معرفة الله الفلسفية تتم بواسطة هذه القابلية الغامضة الخاصة بالإنسان.

أما من ناحية الجاذبات. فإن الإنسان كالكائنات الحية الأخرى يقع تحت تأثير الجاذبات المادية والطبيعية، يرغب في الطعام، في المنام، في الأمور الجنسية، في الراحة وأمثال ذلك وتجذبه هذه الأمور نحو المادة والطبيعة، أما الجاذبيات التي تجتذب الإنسان نحوها لا تقتصر على هذه

الأمور، جاذبات أخرى تجذب الإنسان نحو مراكز غير مادية، أي إنها أمور لا حجم لها ولا ثقل، ولا يمكن قياسها بالأمور المادية وقواعد الجاذبات المعنوية المعروفة ليومنا هذا وأصبحت موضع قبول هي الأمور التالية:

١ـ العلم:

لا يريد الإنسان العلم من اجل سيطرته على الطبيعة ولصالح حياته المادية فحسب، ففي الإنسان غريزة البحث عن الحقيقة والتحقيق، فالعلم نفسه مطلوب الإنسان ويبعث على اللذة.

فالعلم بغض النظر عن انه أداة للعيش وإنجاز المسؤولية بصورة أفضل- في حد ذاته مطلوب الإنسان، ولو علم الإنسان إن هناك سراً غامضاً في ما وراء المجرات، ولا يؤثر علم ذلك أوجهله في حياته، يفضل أن يعلم ذلك، فهو يهرب من الجهل بطبيعته ويسارع إلى العلم، بناء على هذا فالعلم احد أبعاد وجود الإنسان المعنوية.

٢ـ الخير الخلقي:

يقوم الإنسان ببعض الأعمال لا لغرض الفائدة منها أو دفع الضرر بل لمجرد تأثره بسلسلة من العواطف التي تسمى بالعواطف الخلقية. وينجزها لاعتقاده بأن الإنسانية تحكم بذلك، ولنفرض أن شخصاً كان في ظروف صعبة في صحراء موحشة، لاطعام له ولا واسطة، ويهدده الموت في كل لحظة، وفي هذه الأثناء ظهر شخص آخر وساعده وأنقذه من الموت الحتمي، ثم انفصل الرجلان، ولم يشاهد أحدهما الآخر بعد ذلك، وبعد سنوات يرى الشخص المبتلى منجيه القديم بحالة يرثى لها، فيتذكر إن هذا هو الشخص الذي أنجاه الم يأمره وجدانه هنا بأمر؟ الم يقل له (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)(١) ألم يقل له: ان شكر المحسن واجب ولازم؟ فالجواب نعم.

فإذا ساعده هذا الشخص ماذا يقول وجدان الناس الآخرين؟ وإذا

(١) سورة الرحمن / الآية ٦٥.

لم يعتن به ولم يبد اقل رد فعل ماذا يقول وجدان الآخرين؟

من الواضح يستحسن وجدان الآخرين في الصورة الأولى ويدعو له الإحسان، ويلوم في الصورة الثانية ويدعو عليه، عندما يحكم وجدان ذلك الشخص أن الإحسان جزاء الإحسان، ويحكم وجدان الناس الآخرين بوجوب استحسان مكافأة الإحسان بالإحسان، ووجوب توجيه الملامة لمن لا يعتني بالإحسان، وهذا ما ينتج من الوجدان الخلقي ويسمون مثل هذه الأعمال بالخير الخلقي.

وان معيار الكثير من أعمال الإنسان هو (الخير الخلقي) وبعبارة أخرى: أن الإنسان ينجز كثيراً من الأعمال بسبب القيمة الأخلاقية لا للأمور المادية، وهذا أيضا من مختصات الإنسان، وله صلة بالجانب المعنوي من الإنسان وأحد أبعاده المعنوية. ولم يكن لسائر الحيوانات مثل هذا المعيار أبداً، ولا مفهوم للخير الأخلاقي عند الحيوان ولا معنى للقيمة الخلقية عنده.

٣ـ الجمال:

إن حب الجمال أحد أبعاد الإنسان المعنوية الأخرى، والجمال يشكل جزءاً مهماً من حياة الإنسان. وهو يدخل الجمال في جميع شؤون الحياة، يلبس الثوب للحر والبرد ويهتم بذلك المقدار بجمال اللون والخياطة. يبني داراً للسكنى، فيعتني بجمال الدار أكثر من أي شيء، حتى الخوان الذي يفرشه لوضع الطعام عليه والصحن الذي يضع فيه الطعام، وحتى تنظيم الطعام في الصحون والخوان كل ذلك يتم وفق أصول الجمال، يجب أن يكون هيكله جميلاً، اسمه جميلاً، ثوبه جميلاً، خطه جميلاً، شارعه ومدينته جميلة، والمناظر التي تلوح لعينيه جميلة، وخلاصة القول يجب أن تحيط بكل حياته هالة من الجمال.

وبالنسبة للحيوان فليس هناك موضوع جمال يعرض، والذي يهم الحيوان محتوى الإسطبل ولا يهمه بعد أن يكون الإصطبل جميلاً أو قبيحاً، والجلال الجميل، المنظر الجميل، والمسكن الجميل وغير ذلك لا يهمه أبدا.

٤ـ التقديس والعبادة:

إنّ أحد اثبت تجليات الروح الإنسانية وأقدمها، وأحد أكثر أبعاد وجوده أصالة هو الشعور بالأنابة والعبادة. وتدل دراسة آثار حياة الإنسان على أن الإنسان متى ما كان وأينما كان، كان هناك الإنابة والعبادة، إلا إن نوع العمل يختلف كما يختلف الشخص المعبود، فمن ناحية النوع خذ من الرقصات والحركات الجماعية الرتيبة المصحوبة بعدد من الأذكار والأوراد إلى أسمى الخضوع والخشوع وأرقى الأذكار والثناء، ومن ناحية المعبود، خذ من الحجر والخشب إلى ذات القيوم الأزلي الأبدي المنزه من المكان والزمان.

لم يأت الانبياء بالعبادة ولا ابتكروها، بل إنهم علّموا الإنسان نوع العبادة أي نوع الآداب والأعمال التي يجب أن تتم العبادة بموجبها، ويمنعون عبادة غير الله الأحد (الشرك).

فمن ناحية المسلمات الدبنية وكذلك من وجهة نظر بعض علماء علم الدين(١) كان الإنسان في البداية موحداً ويعبد رباً واحداً، ويعبد ربه الواقعي، وإن عبادة الصنم أو النجم أو الإنسان هي من الانحرافات التي حدثت بعد ذلك. أي إن الإنسان لم يكن هكذا، بحيث بدأ بعبادة الصنم أو الإنسان أو مخلوق آخر ثم وصل بالتدريج مع تكامل المدنية إلى عبادة الله فالشعور بالعبادة الذي يعبر عنه أحيانا بالشعور الديني موجود في جميع أفراد البشر. وقد نقلنا قبل هذا عن (اريك فروم):

(يمكن أن يعبد الإنسان الحيوانات أو الأشجار أو الأصنام الذهبية أو حجراً إلهاً لا يرى أو رجلاً ربانياً أو إماماً شيطانياً ويتمكن من عبادة أسلافه أو شعبه أو طبقته أو حزبه أو ثروته أو شهوته... ومن الممكن أن يكون على علم من تمييز مجموعة معتقداته باعتبارها ديناً عن معتقداته غير الدينية ومن الممكن أن يفكر عكس ذلك بأنه لا دين له أبداً

---

(١) مثل (ماكس مولر)

فالموضوع لم يكن حول أن له ديناً أو لا دين له، وإنما الموضوع هو حول أنه يعتقد بأي نوع من الدين)(١) .

ويقول (وليم جيمس) بناء على ما نقله إقبال:

(إن دافع الإنابة نتيجة ضرورية لهذا الأمر وهو انه في حالة وجود ذاتية اجتماعية في أقوى جزء من الذاتيات الاختيارية والعملية لكل شخص مع ذلك يمكن أن يجد صاحب ذاته التام في عالم الفكر (التفكير الباطني) فقط... وأن أكثر الناس يراجعونه في قلوبهم بصورة دائمية أو بالصدف. وأن أحقر شخص على الأرض يجد نفسه ـ بهذا الاهتمام السامي – واقعياً ذا قيمة(٢) ويقول (وليم جيمس) حول وجود هذا الشعور لدى جميع الأشخاص كما يلي:

(من المحتمل أن يوجد اختلاف بين الناس في درجة تأثرهم بناظر باطني في وجودهم ويشكل هذا الاهتمام عند بعض أكثر من البعض الآخر أهم جزء من الشعور الذاتي، فالذين يكونون هكذا أكثر من غيرهم، يحتمل أن يكونوا متدينين بصورة أكثر، ولكني واثق من انه حتى الأشخاص الذين يدعون بانهم يفتقدونه تماماً فانهم يخادعون أنفسهم، وان لهم دينا إلى حد ما)(٣) .

إن إبداع الإبطال الأسطوريين من الرجال أو العلماء أو الشخصيات الدينية معلول لشعور التقديس عند الإنسان بحيث يريد ان يكون له موجود للثناء والتقديس فيثنى عليه محباً وفي حدود ما وراء الطبيعة.

وان ثناء الإنسان المبالغ فيه للأبطال الحزبيين أوالشعبيين هو نزعة من عبادة الحزب المرام، المسلك، العلم، الماء والتربة، والشعور برغبة التضحية في سبيل هذه الأمور كلها معلولة لهذا الشعور، وان الشعور

---

(١) (جهاني أزخود بيكانه).
(٢) (إحياء فكر ديني) ص١٠٥.
(٣) المصدر السابق.

بالإنابة شعور غريزي بالكمال الذي لا نقص فيه والجمال الذي لا قبح فيه وان عبادة المخلوقات بأي شكل كانت هي نوع من انحرافات هذا الشعور عن مسيرته الأصلية.

فالإنسان يريد من وجود المحدود يريد أن يطير في حال العبادة ويتصل بحقيقة لا نقص ولا حد ولا فناء فيها. وعلى حد تعبير اينشتاين عالم عصرنا الكبير:

(إن الشخص في هذه الحال يدرك صغر الآمال والأهداف البشرية ويشعر بالعظمة التي تتظاهر في ما وراء هذه الأمور والظواهر في الطبيعة والأفكار)(١)، يقول إقبال:

(إن الإنابة عمل حيوي عادي، تكتشف جزيرة شخصيتنا الصغيرة عن طريقها وصنعها في الكل الأكبر من الحياة)(٢) .

فالعبادة تدل على وجود (امكان) و (رغبة) في الإنسان: امكان الخروج من حدود الأمور المادية، والرغبة في الاتصال بالأفق الأعلى والأوسع. وان مثل هذه الرغبة والحب هو من مختصات الإنسان، ولهذا فإن الإنابة والعبادة احد الأبعاد المعنوية لروح الإنسان.

ولكن فرق الإنسان في كيفية تأثره بالجاذبة واختيار احدها موضوع يعرض في المبحث القادم.

قدرات الإنسان المختلفة:

لا تحتاج القوة والطاقة إلى المدح، فالعامل الذي ينتج عنه أثر ما يسمى قوة أو طاقة وان كل موجود من موجودات العالم هو مصدر للأثر وخاصية، أو لعدد من الآثار والخصائص، ولذا فإن كل موجود أعم من الجماد والنبات والحيوان والإنسان له قوة وطاقة، وإذا كانت القوة متائمة للشعور والإدراك والرغبة تسمى بأسم (القدرة).

(١) (دنياى كه في بينيم).

(٢) أحياء فكر ديني در اسلام .

إن أحد الاختلافات الأخرى بين الحيوان والإنسان وبين النبات والجماد هو إن الحيوان والإنسان بعكس الجماد والنبات يصرف بعض قواه حسب رغبته وشوقه أو خوفه أو وراء طلباته فالمغناطيس الذي فيه تكمن جاذبية الحديد ـ مثلاً ـ يجذب الحديد إليه تلقائياً وبحكم نوع من الجبر الطبيعي، فلا هو يعي عمله ولا يقتضي رغبته وشوقه أو خوفه جذب الحديد إليه، وكذلك النار المحرقة والنبات الذي ينبت من الأرض، والشجرة التي تخضر وتثمر.

ولكن الحيوان عندما يمشي يعي مشيته، ويريد أن يمشي، وإذا لم يرد المشي لم يمشي بصورة جبرية.

ولهذا يقال: (الحيوان متحرك ذو رغبة) وبعبارة أخرى فإن بعض قوى الحيوان تتبع رغبته وتحت أمر رغبته، أي إن الحيوان إذا أراد أن تعمل تلك القوى، وإذا لم يرد لم تعمل.

وتوجد في الإنسان أيضا بعض القوى بهذه الصورة، أي إنها تابعة لرغبة الإنسان مع هذا الفارق من أن رغبة الحيوان هي رغبة الحيوان وغريزته الطبيعية، ولا قوة للحيوان أمام رغبته، وبمجرد أن تتحرك رغبته نحو جهة ينجذب إليها تلقائياً، ولا وجود للمقاومة والامتناع لدى الحيوان — أما رغبته الباطنية وكذلك لا يمتلك القدرة على المحاسبة والتفكير في تفصيل جانب من الرغبات أو الأمور التي لارغبة فيها الآن بل إن التفكير في العواقب يقتضي ذلك.

أما الإنسان فلم يكن هكذا، فهو قادر ويمتلك القدرة في أن يثبت أمام ميوله الباطنية وألا ينفذ أوامرها. ويمتلك الإنسان هذه القدرة بحكم قوة أخرى والتي يعبر عنها بـ(الإرادة). والأرادة — بدورها ـ تقع تحت حكم العقل، أي أن العقل هو الذي يميز، والإرادة تنفذ.

ويتضح مما سبق أن الإنسان يمتلك قدرات من جهتين لا يمتلكها سائر الكائنات الحية:

الأولى: وجود عدد من الميول والجاذبات المعنوية في الإنسان والتي

لا وجود لها في سائر الكائنات الحية، وهذه الجاذبات تمكن الإنسان من توسعة دائرة نشاطاته من حدود الماديات إلى أفق المعنويات السامية. ولكن سائر الكائنات الحية لم تتمكن من الخروج من سجن الماديات.

الأخرى: لما كان الإنسان مجهزاً بقوة (العقل) و(الإدارة) فهو قادر على الوقوف بوجه الميول ومقاومتها، وتحرير نفسه من تأثير نفوذها الجبري والتحكم في جميع الميول. فالإنسان يتمكن من أن يجعل جميع الميول والرغبات تحت سيطرة العقل ويخصص ما تحتاجها، ولا يعطي لكل رغبة أكثر مما خصص لها، وبهذا يكسب الحرية (المعنوية) التي هي أغلى أنواع الحرية.

إن هذه القدرة العظيمة من مميزات الإنسان، ولا توجد في أي حيوان، ولهذا جعلته مستحقاً (التكليف) وهذا ما يعطي الإنسان حق (الاختيار) وهذا ما يجعل الإنسان موجوداً (حراً) و(مختاراً)، (صاحب اختيار) حقاً.

إن الميول والجاذبات هي نوع من الصلات والجاذبيات بين الإنسان ومركز خارجي تجذب الإنسان إليها وهو يترك نفسه بالمقدار الذي يستسلم فيه للميول، أو يتحول إلى حالة ضعف وخنوع ونصف شلل فيكون مصيره بيد قوة خارجية تجره إلى هذه الجهة وتلك، ولكن قوة العقل والإرادة قوة باطنية ومظهر شخصية الإنسان الواقعية.

إن الإنسان عندما يعتمد على العقل والإرادة بجميع قواه وينظمها ويقطع النفوذ الخارجي ويحرر نفسه ويصبح بصورة (جزيرة مستقلة) ويتمكن عن طريق الإرادة والعقل فقط إن يكون (مالك نفسه) وان تتركز شخصيته.

إن ملكية النفس والسيطرة عليها والتخلص من نفوذ جاذبية الميول هو الغاية الأساسية للتربية الإسلامية، وان غاية مثل هذه التربية وهدفها هو (الحرية المعنوية).

معرفة الذات

يهتم الإسلام بصورة خاصة بأن يعرف الإنسان (ذاته) ويعيّن مكانه وموضعه في عالم الخلقة وكل ما ورد من التأكيد في القرآن حول الإنسان هو من أجل أن يعرف الإنسان ذاته كما هو ويتفهم منزلته وموضعه في عالم الوجود والغاية من هذا الفهم وهذه المعرفة هي أن يوصل نفسه إلى المنزلة السامية التي تليق به.

والقرآن كتاب يبني الإنسان، ولم يكن فلسفة نظرية تقوم علاقته على البحث والنظر والرأي فقط وعندما يعرض النظرة يقدمها للعمل والقيام بها.

ويسعى القرآن ليكشف الإنسان (ذاته) ولم تكن هذه (الذات) (ذات) دفتر النفوس: ما هو اسمك؟ ما اسم أبيك؟ وفي أي سنة ولدت؟ وتابع لأي بلد؟ ومن أي تربة؟ ومع من متزوج؟ وكم عدد أولادك؟

تلك (الذات) هي نفس الشيء المسمى بـ(الروح الإلهية) وبمعرفة تلك (الذات) التي تشعر بالشرف والكرامة والسمو وتعتبر نفسها أسمى من أن تخضع للرذائل، يدرك الإنسان قدسيته ويجد للمقدسات الأخلاقية والاجتماعية معنى وقيمة.

يتحدث القرآن عن اصطفاء الإنسان. لماذا؟ يريد أن يقول: انك لم تكن موجوداً (صدفة) بحيث أوجدتك الحوادث العمياء الصماء كاجتماع الذرات بالصدفة مثلاً، أنك موجود مصطفى ومنتخباً ولذا فإن عليك رسالة ومسؤولية. والإنسان – دونما ريب – أقوى الموجودات في العالم الترابي وأقدرها، ولو فرضنا أن الأرض والموجودات الأرضية في حكم (قرية) فالإنسان (رب) هذه القرية، ولكن علينا أن نرى هل أن الإنسان رب منتخب أو أنه رب فرض نفسه بالقوة والعنف.

وتعتبر الفلسفات المادية سلطات الإنسان الحاكمة صادرة عن قوة

الإنسان وقدرته فقط وتدعى أن الإنسان أصبح ذا قوة وقدرة لأسباب عفوية. ومن الواضح أن (الرسالة) و(المسؤولية) لا معنى لها للإنسان مع وجود هذه الفرضية، أية رسالة ؟ وأية مسؤولية ؟ ومن قبل أي شخص ؟ وبوجه أي شخص ؟ .

وأما من وجهة نظر القرآن فإن الإنسان (رب) الأرض المصطفى، وبحكم اللياقة والاستحقاق لابمجرد القوة وبرثن التنازع، وقد اصطفى من قبل أعلى مقام ذي صلاحية في الوجود أي الله والانتخاب بتعبير القرآن هو (الاصطفاء)ولهذا الدليل فإن له (رسالة) و(مسؤولية) كأي مصطفى آخر، رسالة من قبل الله، ومسؤولية أمامه .

إن الاعتقاد بأن الإنسان موجود مصطفى وهناك غاية في اصطفائه يولد في الأشخاص نوعاً من الآثار النفسية والتربوية، والاعتقاد بأنه ناتج عن سلسلة من الصدف العشواء تولّد فيه نوعاً آخر من الآثار النفسية والتربوية.

ومعرفة الذات تعني أن يدرك الإنسان منزلته الواقعية في عالم الوجود ويعلم أنه لم يكن مجرد تراب وإنما توجد فيه أشعة من الروح الإلهية، ويعلم أنه يمكن أن يتقدم على الملائكة ويعلم أنه حر ومختار ومسؤول عن نفسه وعن الأشخاص الآخرين وعن اعمار العالم وتحسينه: (هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)(١) ويعلم أنه أمين الله، ويعلم أنه لم تحصل له الأفضلية بالصدفة ليستبد ويسيطر على كل شيء لصالح نفسه ولايعترف بأية مسؤولية وتكليف لنفسه.

تربية القابليات:

إن التعاليم الإسلامية تشير إلى أن هذه المدرسة الإلهية المقدسة تهتم اهتماماً بليغاً بكل أبعاد الإنسان الجسمية والروحية، المادية والمعنوية،

---

(١) سورة هود – الآية ٤١ .

الفكرية والعاطفية، الفردية والاجتماعية، ولم تكن لم تهمل أي جانب منها فحسب، بل أنها كانت تعتني بصورة خاصة بتربيتها جميعاً على أساس خاص، ونشير هنا بصورة مجملة إليها جميعاً:

تربية الجسم:

قد شجب الإسلام بشدة (تربية البدن) بمعنى (تربية النفس) وحب الشهوة ولكنه اعتبر تربية الجسم بمعنى المحافظة على سلامته وصحته من الواجبات وأعتبر كل عمل من الأعمال الضارة بالجسم حراماً. ويسقط الإسلام التكليف بأمر واجب (كالصوم) إذا ظهر أنه مضر بالجسم أحياناً بل يعتبر مثل هذا الصوم حراماً، وكل إدمان(١)يضر بالجسم حرام في نظر الإسلام، وقد وضع كثير من الآداب والرسوم في الإسلام رعاية للصحة وسلامة الجسم.

ومن الممكن ألاّ يميّز البعض بين (تربية الجسم) التي هي أمر صحي وبين (تربية البدن) بمعنى تربية النفس والهوى والتي هي أمر خلقي، ويتصوروا أن الإسلام يخالف تربية الجسم، يخالف صحة الجسم، إذاً فعدم الإهتمام بالمحافظة علي السلامة، والأعمال المضرة بصحة الجسم وسلامته تعتبر عملاً أخلاقياً في نظر الإسلام، وهذا خطأ فاحش خطير، فأين تقوية الجسم وسلامته وصحته من تربية البدن وإراحته ؟

إن تربية النفس والهوى وحب الشهوة الذي يشجبه الإسلام فهو كما أنه مخالف لتربية الروح ويؤدي إلى مرضها، فهو مخالف لصحة الجسم، وتربيته الصحيحة أيضاً، ويؤدي إلى المرض الجسمي لأن حب النفس والشهوة يؤدي إلى الإفراط، والإفراط مصدر الاختلالات الأساسية في الأجهزة البدنية.

تربية الروح:

إن تربية العقل والفكر والحصول على الاستقلال الفكري ومكافحة الأمور المخالفة لاستقلال العقل مثل تقليد الأجداد، والأكابر

---

(١) يريد المؤلف الشهيد الأدمان على تعاطي المسكرات أو المخدرات. الترجمان.

والشخصيات، وسلوك الأكثرية وأمثال هذه الأمور أصبحت موضع اهتمام الإسلام جداً.

فتربية الإرادة وتملك النفس والحرية المعنوية من حكومة الرغبات المطلقة هي أساس كثير من العبادات الإسلامية وسائر التعاليم الإسلامية، فتربية الشعور بالبحث عن الحقيقة وطلب العلم تربية العواطف الخلقية، تربية الشعور بالجمال، تربية الشعور بالعبادة كل هذه الأمور أصبح موضع اهتمام الإسلام السديد.

دور الإنسان المؤثر في بناء مستقبله :

تنقسم موجودات العالم إلى كائنات حية وغير حية ، فالموجودات غير الحية لا دور لها في بناء أنفسها ابداً، فالماء والتراب والحجر والنار لاروح لها ولا دور لها في تكوين أنفسها أو تكميلها بل تتكون بمجرد وقوعها تحت عوامل التأثير الخارجية، وتكتسب أحياناً نوعاً من الكمال تحت تأثير نفس العوامل، ولم تشاهد في هذه الموجودات أي سعي ونشاط من أجل بناء أنفسها أو تجليتها .

ولكن الكائنات الحية كالنبات والحيوان والإنسان يشاهد فيها سلسلة من الجهود من أجل حفظ أنفسها وصيانتها من الآفات، ومن أجل جذب المواد الأخرى ، ومن أجل الإنتاج والنسل .

ويوجد في النباتات عدد من القوى الطبيعية لها الأثر في بناء مستقبلها، وتوجد فيها قوة أو قوى تجذب المواد من الأرض أو الهواء ، وقوة أو قوى تنميها من الداخل عن طريق المواد المجذوبة وقوة أو قوى تمكن فيها توليد المثل .

ويوجد في الحيوان جميع هذه القوى مضافة إلى عدد من القوى الشعورية كحس الباصرة والسامعة واللامسة وغير ذلك، وأمثال الميول التي ذكرت آنفاً. والحيوان يحافظ على نفسه بهذه القوى من الأذى والآفات من جهة، ويهيء موجبات نموه الفردي وبقاء نوعه من جهة أخرى.

ويوجد في الإنسان جميع القوى الطبيعية والقوى الشعورية الموجودة في النبات والحيوان مضافة إلى عدد من الميول الإضافية التي شرحناها آنفاً مضافة إلى قوة العقل والإرادة الخارقة التي تسلم تقرير مصيره بيده إلى حد كبير، فيختار مستقبله بنفسه ويصنعه.

ويتضح مما قيل إن بعض الموجودات لا دور لها في بناء أنفسها أبدا (الجمادات).

والبعض الآخر له دور في بناء مستقبله إلا أن هذا الدور لا يصدر عن وعي وحرية، بل إن طبيعة قواه الداخلية تستخدمه بصورة لا شعورية ولا عن وعي لصيانته وبقائه وحفظه في المستقبل (النباتات).

والبعض الآخر له دور أكبر، والدور هذا عن وعي وأن كان غير حر، أي أنه يتمتع بنوع من الشعور بنفسه وبمحيطه ويسعى تحت تأثير جاذبة عدد من الميول الشعورية في سبيل صيانة نفسه في المستقبل (الحيوانات).

ولكن للإنسان دوراً أكثر نشاطاً وتأثيراً أوسع من ذلك في بناء مستقبله وأن دور الإنسان يصدر عن وعي وحرية، أي إن الإنسان يعي نفسه ومحيطه، وهو يتمكن – بالنظر إلى المستقبل – بحكم قوة العقل والإرادة من أن يختار مستقبله كيف ما يريد.

وان منطقة نفوذ دور الإنسان أوسع بكثير بالنسبة للحيوان، وينبع اتساع منطقة بناء الإنسان بالنسبة لمستقبله من مميزات ثلاثة في الإنسان:

١- إتساع منطقة النظرة والوعي. إن الإنسان يجتاز بمنطقه نظرته ووعيه من ظواهر الطبيعة ومستواها بقوة العلم ويوسعها إلى أعماق باطن الطبيعة ويعرف قوانينها وتنبسط يد الإنسان بمعرفة قوانين الطبيعة لبناء الطبيعة بالشكل الذي يتلائم مع حياة الإنسان ؟

٢- إتساع الرغبات التي ذكرت في قسم الإنسان والحيوان(١) وأشير إليها أيضاً في بحوث هذا القسم تحت عنوان (موجود ذو أبعاد).

---

(١) في أول حلقة من هذه السلسلة بإسم (الإنسان والإيمان) .

٣ـ قابلية بناء النفس الخاصة بالإنسان، ولا مثيل له في هذه الجهة في أي موجود آخر. وبيان أن بعض الحيوانات الأخرى لها قابلية بناء النفس إلى حد قليل، ويمكن إيجاد تغييرات فيها بواسطة (عوامل تربوية خاصة) كما يشاهد في عوالم النباتات والحيوانات، ولكن أولاً: لم يبتن أي منها على يد نفسها أبداً والإنسان هو الذي يبنيها، وثانياً إن قابليتها للتغيير قليلة جداً بالنسبة للإنسان.

إن الإنسان موجود بالقوة من ناحية الخصال والأطباع، أي أنه يفقد الطبع والخصلة في بداية الولادة بعكس الحيوانات التي يولد كل منها مع عدد من الخصال الخاصة.

ولما كان الإنسان يفقد كل طبع وخصلة وله قابلية تقبل الخصلة والطبع من جهة ، يبني لنفسه عدداً من (الأبعاد الثانوية). بالإضافة إلى الأبعاد الفطرية بواسطة الخصال والطباع التي حصل عليها .

والإنسان هو الموجود الوحيد الذي سلم قانون الخلقة قلم رسم وجهه بيده ليرسمه كيفما شاء. أي أن أعضاء الإنسان النفسية التي يعبر عنها بالخصال والطباع والملكات الأخلاقية تبنى بعد الولادة إلى حد كبير جداً بعكس أعضائه الجسمية التي يتم بناؤها في مرحلة الرحم، وبعكس الخصال الروحية والأعضاء النفسية لدى الحيوانات التي تتم أيضاً في مرحلة ما قبل الولادة .

ولهذا فإن كل موجود – حتى الحيوانـ هو ما صنعوه، ولكن الإنسان هو ما يريد أن يكون، ولهذا السبب فإن كل نوع من أنواع الحيوانات تتشابه أعضاء جميع أفراده النفسية وخصالها النفسية كما تتشابه أعضاؤها الجسمية. إن جميع أفراد القططة لها خصلة واحدة وجميع أفراد الكلاب لها نوع آخر، وجميع أفراد النمل لها خصلة أخرى، وإذا كان هناك فرق فقليل جداً. ولكن الفرق الخصالي والأخلاقي بين أفراد الإنسان كبير إلى ما لانهاية. ولهذا فإن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي عليه أن يختار (نفسه) كيف يكون .

جاء في الأخبار الإسلامية إن الناس يحشرون يوم القيامة وفق الخصال الروحية المكتسبة لا الأعضاء الجسمية الظاهرة، أي ان الناس يحشرون من الناحية الأخلاقية المكتسبة المشابهة لأي نوع من الحيوان على شكل ذلك الحيوان وصورته وأعضائه. والذين يحشرون على صورة الإنسان هم الأشخاص الذين تتناسب أخلاقهم وطباعهم الاكتسابية وأبعاد روحهم الثانوية مع الشأن والكمالات الإنسانية، وبعبارة أخرى: تكون أخلاقهم أخلاقاً إنسانية .

فالإنسان يسيطر على الطبيعة بحكم قدرته العلمية، ويكيف الطبيعة وفق حاجاته كما يشاء ويبني نفسه كما يشاء بحكم قوة بناء نفسه لديه وبهذا يستلم مصيره القادم بيده .

إن جميع المؤسسات التربوية، والمدارس الأخلاقية والتعاليم الدينية جاءت لتوجيه الإنسان ليبني نفسه على أي صورة وشكل والطريق المستقيم هو الطريق الذي يوصل الإنسان إلى مستقبل سعيد، والطرق المنحرفة العوجاء هي التي تجر الإنسان إلى مستقبل تافه شقي. يقول الله في القرآن الكريم: (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً)(١) .

علمنا من البحوث الماضية إن لكل من العلم والإيمان دور مختلف في بناء مستقبل الإنسان أن دور العلم في أن يعرض أمام الإنسان طريق البناء، فالعلم يجعل الإنسان قادراً على بناء المستقبل كيفما (يريد). وأما دور الإيمان فهو يجر الإنسان إلى كيفية بناء نفسه والمستقبل ليكون أفضل لنفسه ولمجتمعه.فالإيمان يمنع من أن يبني الإنسان المستقبل على أساس مادي وفردي.

والإيمان يهب لرغبة الإنسان الجهة. ويخرجها عن حصار الماديات ويجعل المعنويات جزءاً من الرغبات ويكون العلم تحت تصرف رغبة الإنسان كالآلة ويبني الطبيعة كما يريد الإنسان وكما يأمر، ولكن كيف يبني الطبيعة ؟ هل يصنع من الطبيعة مصنوعات في صالح المجتمع

(١) سورة الدهر – الآية ٤ .

الإنساني، أو قوى مدمره للمزيد من التوسع لأشخاص معينين ؟ وهذا لا صلة له بعد بهذه الآلة التي تدعى علما وصلتها بالناس المتمكنين من هذا العلم أنهم أي أناس.

أما الإيمان، يعمل كالسلطة الحاكمة على الإنسان ويستلم بيده رغبة الإنسان ويسوقها في طريق الحق والأخلاق، فالإيمان يبني الإنسان والإنسان يبني العالم بقوة العلم، وعندما يتوائم العلم والإيمان ينتظم الإنسان والعالم معاً.

ميدان حرية الإنسان وإرادته :

من الواضح أن للإنسان حدوداً كثيرة وإن حريته حرية نسبية – في عين حريته – من أجل بناء أعضائه النفسية وتبديل المحيط الطبيعي بالصورة التي يتطلبها، وبناء مستقبله كما يريد. أي أن الحرية تقع داخل إطار محدود وفي داخل هذا الإطار المحدود يتمكن من أن يختار لنفسه مستقبلاً سعيداً أو مستقبلاً شقياً أيضاً.

ومحدوديات الإنسان من نواحي عديدة :

١ـ الوراثة :

يأتي الإنسان إلى الدنيا بالطبيعة الإنسانية، ولأن أمه وأباه إنسانان، فهو أيضا يأتي إلى الدنيا بالقهر والجبر فرداً انساناً ومن جهة أخرى فإن أبويه يودعان فيه عدداً من صفاتهم الموروثة بحيث تكون معه قهراً وجبراً كلون البشرة ، لون العين ، المميزات الجسمية التي تصل من عدة أجيال بشكل وراثي أحياناً . فالإنسان لم يختر أيا منها لنفسه أبداً بل الوراثة أعطته إياها جبراً.

٢ـ الظروف الطبيعية والجغرافية :

إن ظروف الإنسان الطبيعية والجغرافية والاقليمية التي ينمو فيها تضفي على أعضائه ونفسيته بصورة جبرية عدداً من الآثار، ويوجب كل من المناطق الحارة والباردة والمعتدلة نوعاً من الأخلاق والنفسيات وكذلك المنطقة الجبلية أو المنطقة الصحراوية وغيرها.

٣ـ الظروف الاجتماعية:

إن ظروف الإنسان الاجتماعية عامل مهم في تكوين مميزات الإنسان الروحية والأخلاقية، لغة الإنسان، آدابه العرفية والاجتماعية، الدين والنظام، هذه الأمور غالباً ما تفرضها الظروف الاجتماعية على الإنسان.

٤ـ التاريخ والعوامل الزمنية :

لم يكن الإنسان من ناحية الظروف الاجتماعية متأثراً بزمان الحال فقط ، وإنما للزمان الماضي والحوادث والوقائع التي حدثت في الماضي أثر كبير في بنائه أيضاً. وبصورة عامة فإن الصلة قائمة بين ماضي كل موجود ومستقبله بصورة قطعية ومسلمة، ولم يكن الماضي والمستقبل كنقطتين منفصلتين عن بعضهما، بل هما قطعتان من حادث واحد مستمر، فالماضي نطفة المستقبل ونواته .

٥ـ تمرد الإنسان على الحدود :

إن الإنسان بنفس الوقت الذي لم يتمكن فيه من قطع صلته بالوراثة، بالظروف الطبيعية، بالظروف الاجتماعية، بالتاريخ والزمان بصورة عامة، يتمكن من التمرد إلى حد كبير على هذه الحدود وتحرير نفسه من قيد سيطرة هذه العوامل، والإنسان بحكم قوة العقل والعلم من جهة وقوة الإيمان والإرادة من جهة أخرى، ويوجد تغييرات في هذه العوامل ويكيفها حسب رغباته فيكون هو مقرر مصير نفسه.

الإنسان والقضاء والقدر الإلهي :

يتصورون عادة أن العامل الرئيسي لتحديد الإنسان هو القضاء والقدر الإلهي ولكننا لم نذكر القضاء والقدر الإلهي باعتبارهما عاملين لتحديد حرية الإنسان، لماذا ؟ ألم يوجد القضاء والقدر الإلهي؟ أو أن القضاء والقدر لم يكونا عاملين للتحديد؟ فالقضاء والقدرة الإلهي أمر قطعي ومسلم به ولكنهما لم يكونا عاملي تحديد للإنسان، فالقضاء الإلهي عبارة عن الحكم الإلهي القطعي حول الحوادث، والقدر الإلهي

عبارة عن قياس الحوادث والظواهر .

ومن المسلم به من ناحية العلوم الإلهية فإن القضاء الإلهي لايتعلق بأية حادثة بلا واسطة وبصورة مباشرة، بل أن كل حادثة توجبها عللها وأسبابها فقط، والقضاء الإلهي يحكم بأن يكون نظام العالم نظام الأسباب والمسببات، فمهما أوتي الإنسان من حرية من ناحية العقل والإرادة، ومهما تأتت له المحدوديات من ناحية العوامل الوراثية والتاريخية والظروف، فهو بحكم القضاء الإلهي ونظام العالم السببي والمسببي القطعي.

بناء على هذا فإن القضاء الإلهي نفسه لايعتبر عاملاً لتحديد الإنسان فالمحدودية التي أصبحت من نصيب الإنسان بحكم القضاء الإلهي هي تلك المحدودية الناتجة من الظروف الموروثة والظروف المحيطة والظروف التاريخية، لامحدودية اخرى. كما إن الحرية التي أصبحت من نصيب الإنسان هي أيضاً بحكم القضاء الإلهي، ولكن بهذه الصورة التي يوجب فيها القضاء الإلهي بأن يكون الإنسان موجود ذا عقل وإرادة، ويتمكن في دائرة ظروفه الطبيعية من تحرير نفسه من قيد التسليم إلى تلك الظروف إلى حد كبير ويستلم مصيره ومستقبله.

الإنسان والتكليف :

ان من جملة قابليات الإنسان – كما أشير له قبل هذا – قابلية قبول التكليف، يتمكن الإنسان من العيش داخل إطار القوانين التي وضعت له. ولم يتمكن أي حيوان آخر غير الإنسان أن يتبع قوانين غير القوانين الطبيعية الجبرية، فمثلاً لا يمكن وضع قانون للأحجار والأخشاب والأشجار والزهور، أو للفرس والبقر والغنم، وإبلاغها وتكليفها بذلك بأن يسيروا في إطار القوانين والمقررات التي وضعت لمصلحتهم، وان هذه الموجودات حتى لو فرضنا أن ينجز عملاً من أجل مصلحتها يجب أن يكون بصورة إجبارية وإلزامية .

ولكن الإنسان هو الموجود الوحيد الممتاز الذي يمتلك هذه

(الإمكانية) و(القدرة) العجيبة بحيث يسير في إطار سلسلة من القوانين التعاقدية، هذه القوانين التعاقدية لما كانت موضوعة من قبل شخص ذي صلاحية ويكلف الإنسان بها، ولا يخلوا تكليف القانون من نوع من أنواع الصعوبة والمشقة يدعى باسم(التكليف).

فالمشرع من أجل أن يجعل الإنسان مكلفاً بتكليف خاص عليه ان يرعى عدداً من الشروط، وبعبارة أخرى يتمكن الإنسان مع وجود عدد من الشروط أن يعهد بإنجاز بعض التكاليف، وشروط التكليف التي يجب أن تتوفر في جميع التكاليف هي كالآتي:

١ـ البلوغ :

عندما يصل الإنسان إلى مرحلة من العمر تحدث فيه تغييرات فجائية ويحصل تغيير في هيكله وأحاسيسه وتفكيره يشبه نوعاً من الطفرة يسمى البلوغ ، ولكل شخص في الحقيقة بلوغ طبيعي .

ولايمكن تحديد زمن معين لمرحلة البلوغ لجميع الأفراد بصورة دقيقة، فمن الممكن أن يصل بعض الأفراد إلى مرحلة البلوغ قبل الآخرين. إن مميزات الأشخاص الفردية، وكذلك المميزات المكانية والمحيطية لها تأثير في سرعة البلوغ وتأخيره.

وما هو متيقن هو أن جنس المرأة يصل إلى مرحلة البلوغ الطبيعي قبل جنس الرجل، ومن الناحية القانونية يجب تحديد عمر معين يعتبر السن المتوسط للجميع أو السن الذي هو الحد الأقل لسن البلوغ (بالإضافة إلى شرط آخر كالرشد – في الفقه الإسلامي) ليكون ضابطا لجميع الأفراد.

بناءاً على هذا فمن الممكن أن يصل البعض إلى البلوغ الطبيعي ولكنهم لم يصلوا بعد إلى سن البلوغ القانوني . وبلوغ الرجل في الإسلام وفقاً لرأي أكثرية علماء الشيعة من حيث السن قد تحدد في إتمام السنة الخامسة عشر – بالسنة القمرية – والدخول في السادسة عشر ، وبلوغ المرأة القانوني تحدد في إتمام السنة التاسعة والدخول في

العاشرة ، والبلوغ القانوني هو أحد شروط التكليف أي أن الفرد الذي لم يصل إلى المرحلة القانونية غير مكلف إلا أن يثبت بالدليل أنه قد وصل إلى مرحلة البلوغ الطبيعي قبل البلوغ القانوني .

٢ـ العقل

والآخر من شروط التكليف كون الشخص عاقلاً، فالمجنون الفاقد للعقل ليس بمكلف، وتسقط عنه التكاليف. كما أن غير البالغ لا يتوجه إليه أي تكليف في ما قبل البلوغ، ولا عليه أن يقضي في زمن البلوغ ما لم ينجزه في زمن ما قبل البلوغ، فمثلاً لا يكلف الشخص البالغ بأن يقضي الصلوات التي لم يؤدها في زمن ما قبل البلوغ، لأنه لم يكن التكليف موجه إليه آنئذ، والشخص المجنون أيضاً غير مكلف في حالة الجنون، وبناء على هذا إذا عقل مجنون بعد مدة لا يكلف بقضاء ما لم يؤده في أيام الجنون، فمثلاً لا يجب عليه أن يقضي صلواته وصيامه الفائت في ذلك الزمان.

نعم إن بعض التكاليف تتعلق بأموال الصغير أو المجنون، والمجنون أو الصغير غير مكلفين بإنجاز ذلك، ولكن بعد بلوغ الصغير أو تعقل المجنون يجب عليها إنجازه كالزكاة أو الخمس المتعلق بمال الصغير أو المجنون، بحث إذا لم يكن واليهما الشرعي قد أداه فعليهما أداؤه بعد الوصول إلى مرحلة التكليف.

٣ـ الإطلاع والوعي:

من الواضح إن الإنسان يتمكن من إنجاز التكليف عندما يعلم بوجود ذلك التكليف وبعبارة أخرى عندما يبلغ به .

ولو فرضنا إن المشرع وضع قانوناً ولكنه لم يطلع المكلف عليه لايجب على المكلف، بل لا يتمكن من إجرائه في مرحلة التنفيذ، ولو قام بعمل مخالف لا يتمكن المشرع من معاقبته. يقول علماء علم الأصول: إن معاقبة من لا يعلم بالتكليف ولم يقصر في كسب الإطلاع قبيح، وسموا هذا الأصل به (قبح العقاب بلا بيان).

وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة مرارا بأننا لا نعذب قوماً لتخلفهم إلاّ بعد إتمام الحجة أي لا نقوم به (العقاب بلا بيان).

وبالطبع فإن شرط العلم والإطلاع من أجل التكليف بالنحو المذكور لا يستلزم أن يبقى الإنسان نفسه في حالة الجهل بصورة عملية ويتصوره عذراً لنفسه. فالإنسان مكلف بتحصيل العلم والإطلاع ثم ممارسة نشاطه وفقاً لإطلاعه وجاء في الحديث. إن بعض المذنبين يجلبون يوم القيامة إلى محكمة العدل الإلهية ويؤاخذون على بعض تقصيراتهم في إنجاز مسؤولياتهم، ويقال للمذنب لماذا لم تقم بواجبك؟ فيقول: ما كنت أدري. فيقال له : لماذا لم تطلع ولماذا لم تتابع تحصيل العلم ؟

إذا فالغرض من قولنا: إن العلم والإطلاع شرط في التكليف هو إذا كان التكليف لم يبلغ به المكلف ولم يقصر المكلف من هذه الناحية أي أنه بذل السعي اللازم لتحصيل العلم ولكنه لم يفلح بذلك فإن مثل هذا المكلف معذور أمام الله.

٤ـ القدرة والتمكن:

يكلف الإنسان بعمل يتمكن من إنجازه ولكن العمل الذي لم يتمكن الإنسان من إنجازه لا يكون موضع تكليف أبداً، ولاريب إن قدرة الإنسان محدودة، ولم تكن غير محدودة. ولما كانت القدرة محدودة يجب أن تكون التكاليف في حدود القدرات. فمثلاً للإنسان القدرة على تحصيل العلم والمعرفة ولكنه في حدود معينة من حيث الزمان ومقدار المعلومات. فالشخص مهما كان عبقرياً عليه أن يتدرج في مدارج العلم والمعرفة في طول الزمان تدريجياً، ولو أجبروا شخصاً على أن يقوم بشبه تحصيل يستغرق عدة سنوات الآن يكون بالاصطلاح التكليف (بما لا يطاق) أي التكليف بما فوق الطاقة والقدرة. وإذا أجبر إنسان على استيعاب جميع علوم العالم فذلك أيضاً تكليف بما لا يطاق وغير صحيح ولا يصدر مثل هذا الحكم من حكيم عادل أبداً، ويقول الله في القرآن الكريم:

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)(١)، فلو كان شخص في حال الغرق ونتمكن على إنقاذه يجب علينا إنقاذه، ولكن لو كانت طائرة ما في حالة السقوط، ولانتمكن بأي وجه من إنقاذها يسقط علينا التكليف أي لايؤاخذنا الله على عدم مساعدتنا لإنقاذ الطائرة.

وهنا نقطة وهي كما إننا قلنا حول الإطلاع والوعي ان التكليف المشروط بالإطلاع لايستلزم إلا نكون مكلفين بتحصيل الإطلاع. فالتكليف المشروط بالقدرة أيضاً لايستلزم الا نكون مكلفين بتحصيل القدرة. ففي بعض الموارد يكون تقوية القدرة حراماً وتحصيلها واجباً، فلنفرض أنفسنا الآن أمام عدو صلف قوى مقتدر قاصد للاعتداء على حقوقنا أو الهجوم على حوزة الإسلام، ولانملك في الوقت الحاضر قوة مجابهته، وكل نوع من المجابهة تعنى ضياع القوى دون الحصول على أية نتيجة من عملنا في الوقت الحاضر أو المستقبل، فمن الواضح في هذه الصورة أننا لسنا مكلفين بالمجابهة، ولكننا كنا ولا زلنا مكلفين بالحصول على القدرة لكيلا نضع يدا على يد في مثل هذه الظروف. يقول القرآن الكريم: [وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم](٢) فكما أن الفرد أو المجتمع غير المطلع المقصر في الحصول على الإطلاع يكون موضع مؤاخذة الله ولا يحسب عدم الإطلاع له عذراً، كذلك الشخص أو المجتمع العاجز المقصر في الحصول على القدرة يكون موضع مؤاخذة الله لأنه لم يكتسب القدرة والطاقة فلا يحسب عجزه عذراً له.

٥ـ الحرية والاختيار:

الحرية والاختيار شرط آخر من شروط التكليف، أي أن الإنسان عندما يكون مكلفاً بإنجاز واجب يجب ألاّيكون هناك إجبار أو اضطرار، فإذا كان إجبار (إكراه) أو اضطرار في الأمر، يسقط التكليف.

---

(١) سورة البقرة ـ الآية ٢٨٤ .

(٢) سورة الأنفال ـ الآية ٤٥ .

والإجبار (الإكراه) كأن تكون هناك قوة جابرة تهدد شخصاً بأن يبطل صومه حتماً بحيث إن لم يفطر سوف يتعرض للخطر. فمن الواضح في مثل هذا المورد يسقط تكليف الصوم، أو إذا كان شخص مستطيعاً ويهدده جبار بأنه إذا ذهب إلى الحج فسوف يتعرض هو أو أحد أقربائه إلى الخطر قال النبي الكريم: (رفع ما استكرهوا عليه) أي انه يسقط التكليف عن الأمة عند الإكراه والإجبار والاضطرار هو الا يقع الإنسان موضع تهديد من قبل شخص، بل الاختيار ولكن هذا الاختيار معلول لشروط صعبة حاصلة ، كمن ظل في صحراء عاجزاً وجائعاً لا يملك لسد رمقه طعاماً سوى الميتة ففي مثل هذا المورد يسقط عنه تكليف حرمة أكل الميتة، فالفرق بين الإجبار والإكراه وبين الاضطرار هو أن يقع الإنسان في مورد الإجبار موضع تهديد قوة جائرة بحيث يجب عليك أن تقوم بالعمل الفلاني المحرم، وإذا لم تنجزه فسوف أعاقبك بشدة والإنسان من أجل أن يدفع الضرر عن نفسه فهو مجبور على العمل بخلاف الواجب .

ولكن التهديد غير موجود في مورد الاضطرار، بل تكون الظروف بشكل بحيث تحمله وضعاً غير مرغوب فيه، ولأجل أن يرفع ذلك الموضع أي يرفع ما هو موجود فهو مضطر للعمل خلاف واجبه الأصلي، ففرق الإجبار عن الاضطرار يقع في جهتين:

١- يأتي دور التهديد في مورد الإجبار والإكراه بعكس الاضطرار.

٢- يبحث الإنسان عن طريق لدفع الوضع غير المرغوب فيه في مورد الإكراه والإجبار وفي مورد الاضطرار يبحث عن طريق لرفع مثل ذلك الوضع .

ولكن لا يمكن اعتبار الإكراه والإجبار وكذلك الاضطرار من شروط التكليف العامة، أي ليس لها عمومية وشمول، ثم إنها أولا لها صلة بمقدار الضرر الذي يجب دفعه أو رفعه، ثانياً لها صلة بأهمية التكليف الذي يريد الإنسان (إنجازه بسبب الإكراه أو الاضطرار).

ومن الواضح أنه لا يمكن الأقدام على الأضرار بالمجتمع أو الدين نفسه أو على إزهاق أرواح الآخرين بحجة الإكراه أو الاضطرار، فبعض التكاليف توجب تحمل أي نوع من الأذى والضرر في سبيل إنجازها .

شروط الصحة :

ان ما قلناه حتى الآن يتعلق بشروط التكليف التي يكلف الإنسان بإنجاز عمل ما مع توفرها فشرط التكليف هو عبارة عن الشرط الذي لو لم يتوفر لم يكن للإنسان تكليف وواجب.

ولكن، هناك عدد من الشروط الأخرى التي تسمى بـ(شروط الصحة).

إن المواضيع الشرعية – كما نعلم – أعم من العبادات والمعاملات يجب أن تقرن بعدد من الشروط والمميزات لتتم بصورة صحيحة، فشرط الصحة عبارة عن الشرط الذي ان لم يكن لم يؤد الإنسان تكليفه بصورة صحيحة.

وما أداه كأن لم يكن ويفترض باطلاً، فشروط الصحة كشروط التكليف كثيرة أيضاً، وكما أن شروط التكليف تنقسم إلى عامة وخاصة، فشروط الصحة على قسمين أيضاً، شروط خاصة وشروط عامة فالشروط الخاصة لكل عمل تخص ذلك العمل، وتعرف معرفة ذلك العمل ، والشروط العامة عديدة نشير إليها الآن :

ان بين شروط التكليف العامة وشروط الصحة العامة يوجد – باصطلاح المنطقيين (عموم وخصوص من وجه)(١)، أي ان البعض هي شرط صحة كما إنها شرط تكليف أيضاً ، وبعضها شرط تكليف لاشرط صحة ، وبعضها شرط صحة لاشرط تكليف .

وبالطبع فإن شرط الصحة ينقسم بدوره إلى ثلاثة أقسام، فبعضها شرط لصحة العبادات وصحة المعاملات، والبعض شرط لصحة

---

(١) فمثلاً بين السكة والمال عموم وخصوص من وجه، بعض المسكوكات مال وبعضها ليست بمال ، وبعض المال ليس بسكة، وبعض المال سكة .

العبادات فقط، والبعض شرط لصحة المعاملات فقط.

فالشيء الذي هو شرط للتكليف وشرط للصحة هو العقل، فالإنسان غير العاقل كما أنه لاتكليف له، لا تصح أعماله من العبادات أو المعاملات .

فمثلاً إذا كان المجنون يريد أن يحج نيابة عن الغير لايجزيء أو إذا أن يصلي نيابة عن الغير أو يصوم لايجزيء ، وكذلك إذا كان المجنون في صلاة الجماعة رابطاً بين الإمام والمأموم أو رابطاً بين المأمومين لايجزيء.

والقدرة كالعقل شرط للتكليف وللصحة، كما إن عدم الإكراه كذلك، أي إن الشخص مجبور كما أنه يسقط عنه التكليف في ظروف خاصة، فإذا أجرى معاملة عن طريق الإكراه والإجبار أوصار الزواج عن طريق الإكراه والأجبار فإنه غير صحيح بل باطل.

والشيء الذي هو شرط للتكليف وليس بشرط للصحة البلوغ ، فالطفل الغير بالغ لم يكن مكلفاً ولكنه إذا وصل حد التمييز بحيث يتمكن كالبالغ من إنجاز العمل بصورة صحيحة فإن عمله صحيح . بناء على هذا يتمكن الطفل من أن يكون رابطاً بين الإمام والمأموم ، ورابطاً بين المأمومين في صلاة الجماعة كما أنه يتمكن من النيابة عن الآخرين في العبادة . ما هو مسلم هو أن البلوغ لم يكن شرطاً لصحة العبادات أما في المعاملات فكيف...؟ يعتقد بعض العلماء أن البلوغ شرط في صحة المعاملات والطفل المميز الذي يميز الجيد من الرديء لا يتمكن من عقد معاملة لنفسه أو نيابة عن غيره بصورة مستقلة، فمثلاً يبيع ويشتري ، يؤجر أو يجري صيغة النكاح ، والبعض الآخر يعتقد بأن الطفل المميز لايتمكن أن يجري معاملة لنفسه بصورة مستقلة ولكن يتمكن بالنيابة والوكالة عن الآخرين.

ان الإطلاع والوعي وكذلك عدم الاضطرار من الأمور التي تشترط للتكليف ولكنها تشترط للصحة وعلى هذا إذا تم عمل من عبادة أو معاملة وهو كامل من ناحية الشروط أخرى ولكن القائم به لم

يعلم به ومن الصدف كان عمله جامعاً للشروط، فعمله صحيح، مثلاً إذا كان لشخص دار وهي موضع رغبته كثيراً ولا يرغب في بيعها ولكنه جوبه بحادثة أحوجته إلى المال واضطر لبيع داره فمعاملته صحيحة وإذا كان رجل أو امرأة لارغبة لكل منهما بالزواج بأي وجه ولكن حصل مرض والطبيب رأى أن الزواج واجب لعلاج المرض، اضطر احدهما للزواج فالزواج صحيح .

ويتضح من هنا اختلاف المعاملة الإجبارية مع المعاملة الاضطرارية من ناحية الصحة، فالمعاملة الإجبارية غير صحيحة ولكن الاضطرارية صحيحة.

ومن الواجب هنا توضيح سبب عدم صحة المعاملة الإكراهية. من الممكن أن يقال: (المكره) و(المضطر) متساويان من حيث عدم رضاهما كما أن إذا أصبح شخص موضع تهديد لبيع داره أولعمله أو أراد (الدفع) شر ذلك التهديد بيع داره أو أنجاز عمله، فهو غير راض من أعماق قلبه، والشخص الذي تضطره ظروفه المعاشية لبيع داره أو أنجاز عمله من أجل (رفع) شر (لمعالجة المرض مثلا) أيضاً غير راضي من أعماق قلبه أو إذا كان لشخص ولد مريض ويبيع داره أضطرارا لمعالجة ولده لا يرضى من أعماق قلبه بهذا البيع، بل يتأثر ويأسف جداً لبيع الدار التي يرغب فيها، و(المكره) عندما يريد (دفع) ضرر بالعمل الأكراهي الإجباري، والمضطر عندما يريد بالعمل الاضطراري (رفع) ضرر لايؤثر في أصل الموضوع، كما أن في المعاملات الأكراهية يتدخل إنسان بصورة مباشرة ولا يؤثر ذلك في أصل الموضوع بالإضافة إلى أن الاضطرارات تتم غالباً على أثر تدخل الإنسان بصورة غير مباشرة (على شكل استثمار واستعمار).

والجواب هو إن الفرق بين حال(المكره) و(المضطر) الذي يعتبر الشارع الإسلامي معاملات الأول باطلة والثاني صحيحة في مكان آخر، فالمكره تحصل له الحاجة فوراً على أساس الإكراه والمضطر أيضاً ولكن حاجة المكره لدفع شر الظالم يتم بالإقدام المكره على المعاملة وهنا

ينهض القانون لحماية المكره على رغم أجبار المجبر، ويعلن أن المعاملة غير قانونية كان لم تكن. ولكن حاجة المضطر الفورية بصورة مباشرة للمال الذي يريد الحصول عليه عن طريق المعاملة الاضطرارية، وهنا إذا كان يريد القانون أن يهب لحماية المضطر عليه أن يعلن عن صحة المعاملة ومشروعيتها، لأنه إذا أعلن عدم مشروعية مثل هذه المعاملة تكون النتيجة بضرر المضطر، فمثلاً إذا أعلن في المثال المذكور أعلاه عدم مشروعية معاملة الدار وتكون المعاملة كان لم تكن، فالنتيجة لا يكون المشتري مالك الدار ولا البائع يحصل على المال، وتصفر يد المضطر لمعالجه ولده. ولهذا يقول الفقهاء: إن عدم مشروعية المعاملة الاكراهية (منة) أي أنها في صالح المكره ولكن عدم مشروعية المعاملة الاضطرارية لم تكن (منة) لصالح المضطر.

وبنفس الوقت ينفتح المجال لبحث آخر، وهو هل أن الأشخاص الآخرين يتمكنون من استغلال اضطرار المضطر وبؤسه، ويشترون بضاعته لابقيمة عادلة بل بمقدار أقل جداً ويعتبرون ذلك أمرا عائداً ومشروعاً؟ بالطبع لا. هل أن هذا العمل اللامشروع له حرمة تكليفية صرفة، إن المعاملة كما إنها بصالح المضطر صحيحة، بصالح المنتفع صحيحة أيضاً؟ أوأنها لامانع من أن تكون صحيحة من جهة وباطلة من جهة أخرى. أو أنها صحيحة من الطرفين ويكون المنتفع ملزماً بدفع القيمة الواقعية، وعلى كل يبقى موضع البحث.

والذي هو شرط الصحة وليس للتكليف (الرشد) ففي التشريع الإسلامي يلزم لمن يريد أن يتعهد بعمل اجتماعي فمثلاً يريد الزواج أو يريد أن يقوم بمعاملة مستقلاً، أي يريد أن يتصرف بماله وثروته الخاصة أن يتملك (الرشد) إضافة إلى سائر الشروط العامة أي البلوغ والعقل والقدرة والاختيار والرشد يعني اللياقة وقابلية إدارة العمل الذي يريد أن يتعهده .

ولذا لايكفي في قانون الإسلام كون الشخص عاقلاً وبالغاً ومختاراً ليتمكن من التصميم على الزواج أو التصرف في ماله وثروته، فالولد أو البنت التي تريد الزواج يكون زواجها أو زواجه صحيحاً عندما يمتلك

الرشد العقلي الكافي أي يجب أن يعرف مفهوم الزواج ما هو ولماذا؟ وأية مسؤوليات فيه؟ وأي تأثير له في مصير الفرد لكيلا يتورط بصورة عمياء في مثل هذا الأمر المهم.

وكذلك الولد أو البنت الذي يمتلك كل منهما ثروة خاصة عن طريق الأرث أو أي طريق آخر فلا يكفي بمجرد وصولهما إلى حد البلوغ أن يوضع المال تحت تصرفهما، بل يلزم أن يوضعا موضع التجربة والامتحان فإذا كان لهما رشد عقلي بالإضافة إلى البلوغ، أي اللياقة والقابلية لمحافظة الثروة والاستفادة منها تعطي لهما وفي غير هذه الصورة يستمر الولي الشرعي والقانوني بولايته عليهما. يقول القرآن الكريم: (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم)(١).

(١) سورة النساء – الآية ٤ .

معلومات الإنسان

معلومات الإنسان

إن الإنسان مطلع على نفسه وعلى العالم ويريد أن يزيد معلوماته عن نفسه وعن العالم. وتكمن سعادته وتكامله وتقدمه في هذين الاطلاعين.

وأي هذين الاطلاعين يحوز المرتبة الأولى من حيث الأهمية وأي منها في الدرجة الثانية ؟ والحكم في هذا الموضوع لم يكن بتلك البساطة، والبعض يهتمون بالإطلاع على النفس بصورة أكثر والبعض بالإطلاع على العالم ومن المحتمل أن يكون أحد وجوه الاختلاف هو إسلوب التفكير الشرقي وأسلوب التفكير الغربي في نوع الإجابة على هذا السؤال كما إن أحد وجوه اختلاف العلم والإيمان هو أن العلم أداة للإطلاع على العالم والإيمان رأس مال الإطلاع على النفس.

وبالطبع يسعى العلم ليوصل الإنسان إلى الإطلاع على نفسه كما أطلعه على العالم، وعلوم النفس لها مثل هذا الواجب ولكن المعلومات عن النفس التي يقدمها العلم ميتة ولا روح فيها، لاتبعث الحماس في القلوب ولا توقظ طاقات الإنسان من سباتها، بعكس المعلومات عن النفس التي تحصل عن طريق الدين والتي تؤسس بالإيمان والمعلومات النفسية الإيمانية تلهب جميع وجود الإنسان.

إن المعلومات النفسية التي تذكر الإنسان بواقعيته تزيل عنه الغفلة، تلقي النار في روحه وتؤلمه وتعرفه بالألم وليس هذا عمل العلوم والفلسفات، وإن هذه العلوم والفلسفات تبعث على الغفلة أحياناً وتنسي الإنسان نفسه، لذا ما أكثر العلماء والفلاسفة الذين لاهم لهم ولايعون أنفسهم مكبون على الأكل وما أكثر الأميين الذين يعون أنفسهم.

فالدعوة إلى معرفة النفس وإن (من عرف نفسه عرف ربه) و(لاتنس ربك لئلا تنس نفسك) من أوائل التعاليم الدينية، والقرآن الكريم يقول : (ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنسيهم أنفسهم أولئك

هم الفاسقون)(١) . وقال الرسول الكريم: (من عرف نفسه عرف ربه)، وقال علي(ع)(معرفة النفس أنفع المعارف)، وقال أيضا: (عجبت لمن ينشد ضالته كيف لاينشد نفسه) .

إن الذين يعون العالم كان انتقادهم الأساسي للثقافة الغربية ومدنيتها، أن هذه الثقافة هي ثقافة معرفة العالم ونسيان النفس . فالإنسان في هذه الثقافة يتعرف على العالم، وكلما تعرف أكثر على العالم ينسى نفسه بصورة أكثر، والسر الأساس في انهيار الإنسانية في الغرب كامن هنا ، فالإنسان عندما يخسر نفسه بتعبير القرآن (خسران النفس) ماذا ينفعه الحصول على العالم.

واعتقد ان من انتقد الثقافة الغربية أفضل من الجميع هو (المهاتما غاندي) زعيم الهند الفقيد يقول غاندي:

(يتمكن الغربي من الأعمال العظيمة التي تراها الشعوب الأخرى في قدرة الله ، ولكنه عاجز عن شيء وهو التأمل في باطنه ، وهذا وحده يكفي لتفاهة المعاني المدنية الغربية الكاذبة) .

(فالتمدن الغربي إذا كان قد ورّط الغربيين بشرب الخمر والأعمال الجنسية كان ذلك بسبب أن الغربي في صدد نسيان نفسه وإهدارها بدلاً من البحث عنها. وأن أغلب أعمال الغربي العظيمة البطولية وحتى أعماله الجيدة تافهة ومنسية (نسيان النفس).

إن قوته العملية في الاكتشاف والاختراع واعداد آلات الحرب ناتجة من هروب الغربي عن (نفسه) لامن قدرته وسيطرته الخارقة على نفسه).

(وعندما يفقد الإنسان روحه ماذا ينفعه فتح العالم)(٢) .

يقول غاندي :

(إن في الدنيا حقيقة واحدة وهي معرفة الذات (النفس) وكل من لم

---

(١) سورة الحشر – الآية ١٩ .

(١) مقدمة كتاب (اين أست مذهب من).

يعرف نفسه لم يعرف أي شيء، وان في الدنيا قوة واحدة وحرية واحدة وعدالة واحدة، وهي قوة السيطرة على النفس وكل من سيطر على نفسه سيطر على الدنيا. وان في الدنيا حسن واحد هو حب الآخرين كحب النفس وبعبارة أخرى: لنتصور الآخرين كأنفسنا ، والأمور الأخرى تصور وعدم)(١).

وعلى كل حال فلو أعطينا لمعرفة النفس اهتماما أكثر أو لمعرفة العالم، أو قيمناهما بصورة متساوية فما هو متيقن هو إن اتساع المعرفة والمعلومات يعني اتساع حياة الإنسان وبسطها . أن الروح تساوي الخبر والإطلاع ، والخبر يساوي الروح ، والأوعى تكون روحه اكثر .

لم تكن الروح سوى(الخبر) في الامتحان ... ومن كان(خبره) كثيراً فروحه كثيرة

روحنا أكثر من روح الحيوان ... لماذا؟ لأنها تملك خبراً كثيراً

إذا، روح الملك أكثر من روحنا ... لأنه منزه من الحس المشترك

وروح أصحاب القلوب أكثر ... من الملك، فانظر الجبروت

بسبب إن آدم كان مجودهم ... وروحه أكثر من كونهم

وإلا فالأمر بسجود الأفضل ... إلى المفضول لايليق أبداً

متى يليق بلطف الله وعدله ... أن يسجد الورد أمام الشوك

فلما كثرت الروح اجتازت الانتهاء ... فأصبح مطيعها روح جميع الأشياء

الطير والسمك والملك والإنسان ... لأنه أكثر وهؤلاء في القلة

---

(٢) مقدمة كتاب (اين أست مذهب من).

ما هي الروح عند إخبارها بالخير والشر ... تفرح بالإحسان وتبكي من الضرر

لما كان السر وماهية الروح مخبرة ... فالأوعى آلاء عرف له روح أكثر

فلما كان اقتضاء الروح ياقلب هو المعرفة ... فكل من كان أعرف روحه أقوى

فتأثير الروح الوعي والمعرفة ... وكل من يمتلك ذلك أكثر فهو إلهي

ولما كان جميع عالم الروح معرفة ... فمن لاروح له لا علم له (١)

إذا فإن الإنسان بقدر ما هو مطلع على نفسه وعلى العالم له روح أكثر (حيوي أكثر) والحيوية باصطلاح الفلاسفة حقيقة مشكلة، أي أن لها درجات ومراتب، وعندما تسمو معرفة الإنسان بالتدريج، تسمو درجة حياته وروحيته .

ومن الواضح أن معرفة النفس التي هي موضوع البحث لم تكن معرفة النفس الروتينية في دفتر النفوس أنه ما اسمي ؟ وما أسم أبي وأمي؟ أين ولدت ؟ وأين أسكن ؟ ولم تكن معرفة النفس البيولوجية التي تتلخص في معرفة حيوان أسمى بدرجة واحدة من الدب والقرد. ولأجل أن يتضح الغرض نشير إلى أنواع معرفة النفس بصورة موجزة ، وعندما نغض النظر عن معرفة النفس المجازية غير الواقعية مثل معرفة النفس الروتينية فهناك أنواع من معرفة النفس الواقعية .

١ـ معرفة النفس الفطرية، إن الإنسان يعرف نفسه بالذات، أي أن جوهر ذات الإنسان المعرفة، ولم يكن بهذه الصورة بحيث أول ما يتكون (أنا) الإنسان وفي المرحلة التالية يطلع الإنسان على هذا الـ(أنا).إن ظهور(أنا) الإنسان هو عين ظهور الوعي بالذات، فإن الواعي ، والوعي، ووعي في تلك المرحلة واحد، (أنا) واقعية هي عين الوعي

---

(١) هذه ترجمة أبيات من المثنوي للشاعر الإيراني الحكيم (مولوي) . الترجمان .

بالذات .

فالإنسان في المراحل التالية، أي الإطلاع على الأشياء الأخرى إلى حد ما، يطلع على نفسه أيضاً، بتلك الصورة التي يطلع بها على الأشياء الأخرى، أي أنه يرسم صورة عن نفسه في ذهنه وبناء على الاصطلاح يطلع على (العلم الحصولي) بنفسه، ولكن قبل أن يعي نفسه بهذه الصورة، بل قبل الإطلاع على أي شيء آخر فإنه يعي نفسه بالصورة المذكورة أي على نحو (العلم الحضوري) .

إن علماء النفس الذين يبحثون – عادةً في معرفة النفس ، يرون المرحلة الثانية ، أي معرفة النفس على نحو (العلم الحصولي) في الذهن ، ولكن الفلاسفة أكثر ما يهتمون بمرحلة (العلم الحضوري) غير الذهني وهذا النوع من الوعي هو أحدى أدلة تجرد النفس المتقنة في الفلسفة .

وفي هذا النوع من معرفة النفس لا وجود للشك في انه هل أنا موجود أو لست بموجود؟ وإذا كنت موجوداً فمن أنا؟ وأمثال ذلك، لأن الشك يوجد في الموضع الذي يكون فيه العلم والمعرفة من نوع (العلم الحصولي) أي أن وجود الشيء العيني موضوع المعرفة مع وجود المعرفة العيني يكون شيئين.

ولكن عندما يكون الوعي عين الوعي ، والذي أصبح يعي، وهو من نوع الوعي الحضوري لايفترض فيه الشك أي أن الشك محال .

وهنا يكمن خطأ ديكارت في أنه لم ينتبه إلى أن (أنا موجود) لايقبل الشك ، لنحاول إزالة ذلك الشك عن طريق (أنا أفكر)(١) .

فمعرفة النفس الفطرية وإن كانت واقعية، ولكنها لم تكن حصولية ومكتسبة على نحو وجود (أنا) الإنساني. ولذا فإن معرفة النفس تلك

---

(١) إن ديكارت الفيلسوف الفرنسي في القرن السابع عشر بدأ فلسفته بأن شك في كل شيء حتى في البديهيات ثم قال : يمكنني الشك في كل شيء سواء أني أفكر واشك ، إذن (أني أفكر) دليل على (أني موجود) ثم أستنتج وجود الله ووجود الأشياء الأخرى من وجود نفسه .

التي يدعى إليها لم تكن إلى هذا الحد من معرفة النفس لاوجود للشك في أنه موجود أو لست بموجود؟ وإذا كنت موجوداً فمن انا ؟ وأمثال ذلك، لأن الشك يوجد في الموضوع الذي يكون فيه العلم والمعرفة من نوع (العلم الحصولي) أي أن وجود الشيء العيني موضوع المعرفة مع وجود المعرفة العيني يكون شيئين .

ولكن عندما يكون الوعي عين الوعي، والذي اصبح يعي ، وهو من نوع الوعي الحضوري لايفترض فيه الشك، أي أنا أفكر) .

فمعرفة النفس الفطرية وان كانت واقعية ، ولكنها لم تكن حصولية ومكتسبة على نحو وجود (أنا) الانساني. ولذا فإن معرفة النفس تلك التي يدعى اليها لم تكن إلى هذا الحد من معرفة النفس التي ظهرت بصورة جبرية وتكوينية على أثر حركة الطبيعة الجوهرية .

وعندما يقول القرآن بعد استعراضه لمراحل خلقه الجنين في الرحم باعتبارها المرحلة الأخيرة: (ثم أنشأناه خلقا آخر)(١) يشير إلى ان المادة التي لاتعي نفسها تتبدل بجوهر روحي يعي نفسه .

٢ـ معرفة النفس الفلسفية: يحاول الفيلسوف أن يعرف ما هي حقيقة (أنا) الذي يعي نفسه ؟ هل أنه جوهر أو عرض ؟ مجرد أو مادي ؟ أية صلة له بالجسم؟ هل كان موجود قبل الجسم أو مع الجسم ؟ هل أنه باق بعد الجسم أم لا ؟ وأمثال هذه الأمور .

والذي يعرض في هذه المرتبة من معرفة النفس ماهية النفس وما هي حقيقتها ومن أي جنس هي ؟ وإذا ادعى الفيلسوف معرفة النفس فان ذلك يعني أنني أعرف ما هي ما هيتي وجنسي وجوهري (أنا).

٣ـ معرفة النفس العالمية: أي معرفة النفس في صلتها بالعالم من أنه من أين أثبت؟ أين أنا الآن؟ إلى أين أذهب؟ يكتشف الإنسان في معرفة النفس هذه أنه جزء من كل باسم العالم ويعرف أنه لم يكن جزيرة مستقلة، تابع، لم يجيء بنفسه، ولم يعش لنفسه، ولم يذهب بنفسه، يريد

---

(١)سورة المؤمنون – الآية ١٤ .

أن يجدد موضعه في هذا الكل، وإن كلام علي عليه السلام- البليغ يقصد هذا النوع من معرفة النفس، يقول: (رحم الله امرءً علم من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟

ان هذا النوع من معرفة النفس يوجد أحد الطف وأسمى تألم الإنسان، ذلك التألم الذي لاوجود له في الحيوان أو أي موجود آخر في الطبيعة: وهو التألم للحقيقة وهذه معرفة النفس التي تجعل الإنسان متعطشاً للحقيقة وباحثاً عن اليقين يسعى من أجل الأطمئنان وراحة البال وترمي في روحه لهب الشك وتجره من جهة إلى جهة ذلك اللهب الذي التهبت به روح الغزالي وأمثاله، ويسلب منهم الطعام والنوم، ويجرهم من مسند (النظامية)(١) وأمثالها إلى الأرض ويسيبهم في البراري والقفار، ويجعلهم حائرين في الغربة لسنوات عديدة. ذلك اللهب الذي يجر أمثال (البصري) من دورهم ومساكنهم من حي إلى حي ومن بلد إلى بلد بحثا عن الحقيقة هذا النوع من معرفة النفس الذي يوجد مراودة فكرة المصير في الإنسان .

٤- معرفة النفس الطبقية: إن معرفة النفس الطبقية هي صورة من صور معرفة النفس الاجتماعية المختلفة، ومعرفة النفس الطبقية تعني معرفة النفس في صلتها بالطبقة الاجتماعية التي يعيش معها .

فكل فرد في المجتمعات الطبقية يكون في طبقة خاصة — شاء أم أبى — ولون خاص من ناحية الحياة والتمتع والحرمان، ومعرفة الموضع الطبقي والمسؤولية الطبقية .

بل إن الإنسان — على أساس بعض النظريات — الذي فوق الطبقية أن يكون لا(نفس) له فنفس كل شخص (وجدانه)، أحاسيسه، أفكاره، الآمه ونزعاته، وكل هذه الأمور تأخذ شكلها في (الطبقة) ولهذا فالإنسان — في رأي هذه الجماعة نوع فاقد لنفسه، وموجود انتزاعي

---

(١) (داستان راستان) للمؤلف .

لاعيني، والموجود العيني يحصل له التعين في الطبقة، لاوجود للإنسان، لاوجود للنبلاء والجماهير، وتكون للإنسان واقعية في المجتمع اللاطبقي فقط إذا أصبحت للمجتمع هذا واقعية، إذن فمعرفة النفس الإجتماعية تقتصر على معرفة النفس الطبقية في المجتمع الطبقي .

إن معرفة النفس الطبقية تساوي – وفقا لهذا القول – (معرفة الربح) لأنها قائمة على هذه الفلسفة وهي إن الحاكم الأصلي على الفرد وأساس شخصية الفرد هو المصالح المادية، كما ان الركيزة الأساسية والأساس في بناء المجتمع هو الأساس الاقتصادي والذي يعطي لأفراد طبقة ما الوجدان المشترك و(الذوق المشترك) و(الحكم المشترك) هو الحياة المادية المشتركة والمصلحة المشتركة. والحياة الطبقية تعطي النظرة الطبقية، والنظرة الطبقية تكون سببا في أن يرى الإنسان العالم والمجتمع من نافذة خاصة وبمنظار خاص، ويفسر ذلك تفسيراً طبقياً وسوف يكون باطنه – شاء أم أبى – ألما طبقياً وجهده وتحيزه الاجتماعي طبقياً. وتعتقد الماركسية بمثل معرفة النفس هذه، ويكمن تسمية هذا النوع من معرفة النفس بمعرفة النفس الماركسية .

٥ـ معرفة النفس القومية: إي معرفة النفس في صلته مع الناس الذين تربطه بهم رابطة قومية وعنصرية فالإنسان تكون له وحدة مع جماعة من الناس على أثر الحياة المشتركة بينهم بقانون مشترك وآداب، ورسوم مشتركة، تاريخ مشترك، انتصارات واندحارات تاريخية مشتركة، لغة مشتركة، وأدب مشترك، وبالتالي ثقافة مشتركة، بل كما إن القوم والشعب له (نفس) بسبب ثقافته كما إن الفرد له (نفس)، فالوحدة الثقافية توجد شبها ووحدة بين أفراد الإنسان أكثر من وحدة العنصر، إن القومية التي لها سند ثقافي تبني من (أنا) الكثيرين (نحن). ويضحي أحياناً من أجل (نحن) هذا ويشعر بالاعتزاز من انتصار (نحن) ويشعر بالذل من اندحاره .

إن معرفة النفس القومية، تعني معرفة الثقافة القومية، (الشخصية

القومية)، (نحن) الخاص القومي، ولا وجود للثقافة في العالم أساساً، ولكن (الثقافات) موجودة ولكل ثقافة ماهية ومميزات وخصال خاصة بها، ولذا فالثقافة لوحدها مفهوم فارغ. إن القومية التي شاعت كثيراً لاسيما في القرن التاسع عشر الميلادي، ولازال يدعي لها إلى حد ما تقوم على هذه الفلسفة .

إن لمعرفة النفس في هذا النوع جانباً قومياً وتدور عن طريق المؤشر القومي خلافاً لمعرفة النفس الطبقية التي كانت لتقييماتها أحاسيسها — أحكامها تحيزاتها جانب طبقي ان معرفة النفس القومية وإن لم تكن من مقولة معرفة الربح، ولكنها لا تخرج عن مقولة الأنانية من هذه الأسرة، ولها جميع عوارض الأنانية من التعصب والتحيز وغض النظر عن عيبها، العجب، وحب النفس، لذا فهي كمعرفة النفس الطبقية تفقد الجانب الأخلاقي بصورة تلقائية .

٦ـ معرفة النفس الإنسانية: إي معرفة النفس في صلتها مع جميع الناس، ومعرفة النفس الإنسانية تتركز على هذه القاعدة والفلسفة وهي أن الناس يعتبرون بمجموعهم وحدة واقعية ويتمتعون بـ(وجدان إنساني مشترك) واحد، إن الشعور بحب الإنسان والنزعة الإنسانية موجود لدى جميع أفراد الإنسان كما قال (سعدي)(١).

إن بني آدم أعضاء جسم واحد	وهم في الخلقة من جوهر واحد
فإذا ألم الزمان عضوا	لاتستقر سائر الأعضاء
فإذا كنت لاتهتم بهموم الآخرين	لاينبغي أن تسمى آدميا

---

(١) سعدي من الشعراء الإيرانيين البارزين في الأدب الإيراني ، مضمون أبياته كما ترى قد ضمن فيها حديث الرسول الكريم (ص) المشهور (مثل المؤمنين في تراحم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) الترجمان .

إن أشخاصاً مثل (أغوست كنت) الذين كانوا يبحثون عن دين الإنسانية ولازالوا يربون في أدمغتهم هذه الفكرة و(الهيومانسيم) التي تعتبر فلسفة العصر الشائعة إلى حدما، ويدعيها المتنورون غالباً هي هذه.

ترى فلسفة (الهيومانسيم) (النزعة الإنسانية) الإنسان فوق الطبقات، والقوميات، والثقافات والأديان، والألوان، والعناصر والدماء، وبصورة وحدة واحدة وتنكر كل تميز واختلاف .

فالبيانات الصادرة في العالم باسم (حقوق الإنسان) تستند على هذه الفلسفة، وتدعو إلى هذا النوع من معرفة النفس في العالم.

فإذا ظهر هذا النوع من معرفة النفس في شخص ما، يكون ألمه ألم الإنسان وأمنياته أمنيات الإنسان، وتحيزه وسعيه إلى جهة تحيز الإنسان، ويصطبغ حبه وعداؤه بصبغة إنسانية فيكون صديق أصدقاء الإنسان، أي العلم، والثقافة، والصحة، والرفاه، والحرية، والعدالة، والحب، وعدو أعداء الإنسان أي الجهل، والفقر، والظلم، والمرض، وخنق الحريات والتمييز .

وإذا حصل هذا النوع من معرفة النفس يكون له جانب أخلاقي بعكس معرفة النفس القومية أو الطبقية.

ولكن معرفة النفس هذه مع العلم بأن لها صورة منطقية أكثر من الجميع، وأحدث ضجيجاً كبيراً فواقعيتها أقل من الجميع، لماذا؟

وسر الموضوع كامن في كيفية الإنسان وواقعيته ويختلف الإنسان في كيفية وجوده وواقعيته عن جميع الموجودات من الجماد والنبات والحيوان، من حيث أن كل موجود عندما يضع قدمه في العالم ويختلف هو ذلك المخلوق نفسه، أي أن ماهيته وواقعيته وكيفياته هي التي صنعت بيد عوامل الخلقة ولكن الإنسان بعد الخلقة يبدأ مرحلة جديدة ماذا يكون وكيف يكون ، وليس الإنسان ذلك الشيء المخلوق، بل هو ما يريد أن يكون، هو ذلك الشيء، الذي تصنعه العوامل التربوية ومنها إرادته واختياره.

وبعبارة أخرى: فإن كل شيء يقال له من حيث الماهية: ما هو؟ ومن حيث الكيفية: كيف؟! قد خلق (بالفعل) اما الإنسان من هذه الناحية خلق (بالقوة). أي أن بذرة الإنسانية موجودة فيه بالقوة بحيث لو لم تجابهها آفة تثبت تدريجاً من أرض وجود الإنسان، وهذه هي فطريات الإنسان التي تبني بعد ذلك (وجدانه) الفطري.

إن للإنسان – بعكس الجماد والنبات والحيوان – شخصاً وشخصية. وشخص الإنسان يعني مجموع أجهزته الجسمية، التي تولد بالفعل في الدنيا، فالإنسان في بداية ولادته يكون (بالفعل) من ناحية أجهزته الجسمية كسائر الحيوانات ولكنه موجود بالقوة من ناحية الأجهزة الروحية، ومن ناحية ما يصنع بعد ذلك شخصيته الإنسانية، وقيمه الإنسانية موجودة بالقوة في مجال وجوده وهي مستعدة للإنبات والنمو(١).

(١) ونريد هنا أن يتضح الموضوع إلى حد ما من أن نظرية الفطرة بمفهومها الإسلامي هي بعكس مفهومها الديكارتي والكنتي وغيرهما، لم تعن أن الإنسان يملك بعض الأدراكات والنزعات والرغبات بالفعل منذ الولادة وعلى حد تعبير الفلاسفة أنه يولد مع العقل والإرادة بالفعل، كما إننا لانقبل نظرية منكري الفطرة بالنسبة للإنسان أي نظرية الماركسيين وأتباع أصالة الوجود من أن الإنسان لاقط ومنفعل محض منذ الولادة ولايفرق بحاله أي دور يعطاه كالصفحة البيضاء التي يتساوى حالها مع كل رسم يرسم عليها ، بل أن الإنسان منذ الولادة له قابلية الرغبة بقدر الإمكان، ومتحرك باتجاه عدد من الألتقاطات والنزعات وتسوقه نحوها قوة باطنية – بمساعدة الظروف الخارجية – وإذا وصل بما يملكه بالقوة إلى فعلية تليق به وتسمى إنسانية فقد وصل، وإذا فرضت عليه فعلية غير تلك الفعلية على أثر الجبر وضغط العوامل الخارجية ، سيكون موجوداً ممسوخاً. ولذا فإن مسخ الإنسان الذي يتحدث منه حتى الماركسيون وأتباع أصالة الوجود لايكون له مبررا إلا عن طريق هذه المدرسة.

ومن جهة نظر هذه المدرسة فإن نسبة الإنسان في بداية الظهور مع القيم والكمالات الإنسانية هي نسبة فسيل الأجاص مع شجرة الأجاص بحيث تقوم الصلة الباطنية

إن الإنسان متأخر من المرحلة الجسمية بمرحلة واحدة من الناحية النفسية والمعنوية فإن أجهزته الجسمية تخلق وتنظم في الرحم بواسطة عوامل الخلقة، ولكن أجهزته النفسية والمعنوية ، وأركان شخصيته يجب أن تؤسس وتنمى في مرحلة ما بعد الرحم .نقول أن كل إنسان هو باني شخصيته ومهندسها ومعمارها فقد أعطى قلم تصوير خلقه شخصية الإنسان بيده بعكس شخصية.

ولايمكن تصوير الانفصال بين كل موجود وماهيته غير الإنسان، فمثلاً بين الحجر والحجرية بين الشجر والشجرية، بين الكلب والكلبية، بين القط والقطية، فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي يمكن الفصل بينه وبين ماهيته، أي بين الإنسان والإنسانية، وما أكثر الناس الذين لم يصلوا إلى الإنسانية ولازالوا في المرحلة الحيوانية، كبعض الأشخاص البدويين المتوحشين، وما أكثر الناس الذين مسخوا وتحولوا إلى عدو الإنسان كأكثر المتظاهرين بالمدينة.

وكيف يمكن أن يقع الفصل بين الشيء وماهيته؟ ومن الواضح أن الماهية لازمة الوجود فإذا كان وجود بالفعل تكوين ماهيته بالفعل تبعا له. والوجود بالقوة هو الذي يفقد ماهيته اللائقة به.

أن ما يسميه الوجوديون بأصالة الوجود ويدعون ان الإنسان وجود بلا ماهية وهو الذي يهب لنفسه الماهية. باختيار طريقه ، وهذا هو تبريرهم الفلسفي الصحيح، ويستند الفلاسفة الأسلاميون لاسيما صدر المتاهين كثيراً على هذا الموضوع، ولذا فإنه يقول: ليس الإنسان نوعاً، وانما هو أنواع، بل ان كل فرد هو نوع في كل يوم غير نوع اليوم الآخر.

ومن هنا يتضح أن إنسان علم الحياة، الإنسان البيولوجي لم يكن ملاكاً للإنسانية فإنسان علم الحياة هو مجال الإنسان الواقعي فقط، وبناء

تابع --- بمساعدة العوامل الخارجية بتحويل الصورة الأولى إلى الصورة الثانية لا مثل الخشب والكرسي الذي تخرجه العوامل الخارجية فقط إلى هذه الصورة .

على تفسير الفلاسفة هو حامل قابلية الإنسانية لا الإنسانية نفسها، ويتضح أيضاً أن التفوه بالإنسانية بدون أصالة الروح لامعنى له ولا مفهوم.

والآن وبعد ما عرفنا هذه المقدمة نتمكن من درك (معرفة النفس الإنسانية) بصورة أذن.

ان (معرفة النفس الإنسانية) ترتكز على هذه القاعدة وهي إن الناس بمجموعهم يعتبرون (وحدة) واقعية، ويتمتعون بوجدان انساني مشترك واحد، فوق الوجدان الطبقي الديني والقومي والعنصري.

والآن نقول : إن هذا الموضوع يحتاج إلى توضيح.

إن إي الناس لهم (ذات) واحدة بمجموعهم وتسودهم روح واحدة ؟ وبين أي أناس تنمو معرفة نفس الإنسان وتوجد فيهم التكاتف والتعاطف؟ هل يتم ذلك فقط بين الناس الواصلين إلى الإنسانية الذي تحققت فيهم القيم الإنسانية وفي الحقيقة تحققت فيهم الماهية الإنسانية الواقعية ووصلت إلى الفعلية؟ أوالناس الباقين في حد كونهم بالقوة، أو الناس الممسوخين والمتغيرة ماهيتهم وتحولوا إلى أسوء الحيوانات؟ أي الناس ؟ هل هؤلاء جميعاً معا ؟

من الواضح أنه عندما يجري الحديث عن التألم المتقابل يكون الكلام في أنهم جميعاً أعضاء جسم واحد يتألمون لبعضهم، ولا يمكن أن يكون الجميع هكذا، فالإنسان البدوي الوحشي الذي لم يزل في حد الطفولة، ولم تزل فطرته الإنسانية في حالة سبات ولم تتحرك، متى يكون له مثل هذه العاطفة والتألم؟ ومتى تسوده مثل هذه الروح المشتركة؟ وتكليف الإنسان الممسوخ واضح تماماً.

إذا فالناس الواصلون للإنسانية، الناس الذين حصلوا على الماهية الإنسانية، الناس المتلقحون بالفطرة الإنسانية هم في الواقع أعضاء جسم واحد، وتسودهم روح واحدة.

وعنـدما يـؤلم الـدهر عضـوا لاتسـتقر سـائر الأعضـاء (١)

فإن مثل هؤلاء الناس الذين نبتت فيهم جميع القيم الفطرية هم أولئك الناس (المؤمنون) لأن الإيمان واقع في رأس الفطريات والقيم الإنسانية الأصيلة.

إذن، فإن ما يجعل الناس في الواقع على صورة (نحن) هو ينفخ فيهم روحاً واحدة وإن ما ينبثق عنه مثل هذه المعجزة الأخلاقية والإنسانية هو (وحدة الإيمان) لاوحدة الجوهر ولا وحدة الأصل ووحدة الولادة، التي وردت في شعر سعدي (المذكور).

وإن ما قاله (سعدي) أمنية لا واقعية، بل لم يكن أمنية أيضاً، وأي وجهة تجعل موسى وفرعون من جسم واحد، وتجعل أبا ذر يتألم لمعاوية، ولايستقر لومومبا من أجل تشومبى ؟.

وإن ما هو واقعية وأمنية بنفس الوقت هو وحدة الناس بالفعل ، أي الناس الواصلين إلى الإنسانية المتقيمين، ولذا فإن الرسول الكريم في حديثه الذي أخذه سعدي وحرفه بالتعميم قال: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعض تداعى له سائر أعضائه بالسهر والحمى ، بدلا من أن يقول : بنو آدم أعضاء جسد واحد.

ولاريب في أن الإنسان الإنساني يحب جميع الناس بل جميع الأشياء حتى الناس الممسوخين المتغيرة ماهيتهم، ولذا فإن الله يـدعو الـنبي رحمـة للعالمين ، ومثل هؤلاء الناس يعطفون على أعـدائهم أيضـاً، وكـان علـي (ع) يقول بالنسبة لابن ملجم المرادي:

أريـد حياتـه ويريـد قتلـي عذيرك من خليلك مـن مـراد

ولكن الحديث يجري حول (الحب المتبادل)، و(التألم المتبادل)، والحب المتبادل لايتحقق إلا في مجتمع المؤمنين فحسب.

---

(١) ترجمة بيت شعر للشاعر الإيراني (سعدي).

ومن الواضح لم يكن لازم الحب العام بالنسبة لجميع الناس هو (الصالح العام) وعدم المسؤولية وترك الضال والظالم يعمل كما يريد، بل العكس فالنزعة الإنسانية الواقعية توجب أصعب المسؤوليات في هذه المجالات.

وفي عصرنا وجهان بارزان إنسانيان هما (بيرتراندرسل) الفيلسوف والرياضي البريطاني المعروف، و(جان بول سارتر) الفيلسوف الوجودي الفرنسي. ومن الصدف أن يكون (رسل) قد أقام فلسفة أخلاقه على أساس متضاد مع سلوكه الإنساني، وتقوم فلسفة أخلاق رسل على أساس النظرة البعيدة في المصالح الشخصية، أي أنه يعتبر الربح الأكثر والأفضل في ظل الأصول الأخلاقية أساساً للأخلاق، ولايعترف للأخلاق بفلسفة أخرى، بناء على هذا فنزعة السيد رسل الإنسانية تنبع من حب الربح.

ونزعة (جان بول سارتر) الإنسانية هي – على حد تعبير أحد الكتاب المعاصرين ـ : إن مظهر اضطراب عالم الغرب ناتج من تجويف ما تحت قدمه، يقول هذا الكاتب تحت عنوان (وجهان من وجوه النزعة التافهة في الغرب اليوم).

ذلك البرجوازي المتحمس الذي فتح (الباستيل) ونشر لواء القومية لم يملك اليوم شيئاً يفكر به سوى عدم التفكير ! إن الجيل الأوربي الشاب قد وقف على نقطة جوفاء، إن الغرب اليوم يستلم صادراته : الاضطراب الاجتماعي، الخيبة، الحيرة – الشعور بالاحتقار والتفاهة – إنه كان قد فرض كل هذه الأمور على الشعوب والمدنيات الأخرى ...هكذا يفكر التافه: ان مالم يكن لي، فذره الا يكون لأي أحد ...وبهذا يميل نحو انهدام ذاته .

ولكننا نرى رد الفعل الآخر في ظهور نوع من فلسفة (حب الإنسان الرومانطيقي) التي أشغلت متنوري الغرب في المستويات المختلفة، وعلى أحد طرفيها (رسل) بنظرة عملية بسيطة، وعلى طرفها

الآخر (سارتر) بنظرة فلسفية معقدة صعبة، ومضطربة ويحاول في هذا الوسط متنورو السياسة والاقتصاد مثل (تيبورمند) أن يجدوا طرقاً عملية لمشاكلهم ومشاكل الآخرين.

(ولكن سارتر ... بمسلكه العرفاني المتحرر من كل ما يقبل صبغة الصلة ونظرية مسؤوليته والتزامه المعقدة، وجه آخر من الروح الغربية، الذي يريد – بالشعور بالذنب – إن يعوض ما فات ويعتقد سارتر – كالرواقيين – بأخوة البشر ومساواتهم وبالحكومة العالمية، والحرية والاختيار والتقوى والاستقامة، ويمثل سارتر تلك الرغبة المتنورة في الغرب اليوم التي تريد أن تنقذ نفسها من اضطراب تجويف ما تحت قدمها بارتمائها في حجر (البشرية العامة) ويطلب لنفسه وللغرب جميعاً العفو والمغفرة من إله البشرية العامة الذي حل محل الإله القديم).

فالنتيجة البارزة لنزعة سارتر الإنسانية هي تلك التي نراها في أنه في كل مدة ينثر دموع التماسيح من أجل مظلومية اسرائيل، ويئن من ظلم العرب لاسيما المشردين الفلسطينيين.

إن العالم قد رأى ويرى بصورة مستمرة المظاهر العملية لجميع الغربيين من أصحاب النزعة الإنسانية الذين وقعوا بيانات حقوق الإنسان الطويلة العريضة، ولايحتاج إلى شرح وتعليق.

إن معرفة النفس الاجتماعية ، من طبقية، وقومية وإنسانية قد أخذت لنفسها في عصرنا اسم معرفة النفس المتنورة، والمتنور هو الذي قد وصل إلى أحدى هذه المعارف وأحس بالألم الطبقي أو القومي أو الإنساني، ويحاول إنقاذ طبقته أو قومه أو جميع الناس، ويريد أن ينقل إليهم وعيه الذاتي، ويثيرهم للحركة والسعي من أجل التحرر من القيود الأجتماعية.

٧ـ معرفة النفس العرفانية: إن معرفة النفس العرفانية معرفة بالذات في صلتها بذات الله وهذه الصلة من وجهة نظر أهل العرفان هي من نوع صلة موجودين يقوم كل منهما في عرض موجودية الآخر ولم

تكن كصلة الإنسان بأفراد المجتمع بل من نوع صلة الفرع بالأصل والمجاز بالحقيقة وحسب اصطلاحهم من نوع صلة المقيد بالطلق.

فألم العارف – بعكس ألم المتنور – لم يكن انعكاسا للآلام الخارجية في معرفة نفس الإنسان بل هو ألم باطني، أي أنه ألم يظهر من حاجة فطرية ولما كان ألم المتنور ألماً اجتماعيا، فان يطلع أولاً، وأطلاعه يجعله متألماً، ولكن ألم العارف كان ألما باطنيا فإن نفس الألم وعي له وإطلاع، مثل ألم المريض الذي هو إعلان من الطبيعة على وجود حاجة.

ان الحسرة والعويل الذي يرافق المرض

عند المرض كله يقظة

كل من كان أكثر يقظة كانت آلامه أكثر

وكل من كان أكثر وعيا كان وجهه أكثر اصفرارا

إذا فاعرف هذه القاعدة أيها الباحث عن القاعدة

من كان متألماً فقد شم الرائحة (١)

ولم يكن ألم العارف وألم الفيلسوف واحداً، فالعارف والفيلسوف كلاهما يتألمان للحقيقة ولكن ألم الفيلسوف هو ألم معرفة الحقيقة والعلم بها. وألم العارف وألم الوصول والاتحاد والذوبان في الحقيقة.

إن ألم الفيلسوف يميزه عن سائر أبناء الطبيعة من جميع الجمادات والنباتات والحيوانات ولم يكن ألم العلم والمعرفة في أي موجود في الطبيعة، ولكن ألم العارف هو ألم الحب والجاذبة هو الشيء الذي لا أنه لم يكن في الحيوان فحسب، بل أنه لم يوجد حتى في الملك الذي جوهر ذاته

---

(١) هذه ترجمة أبيات فارسية ثلاثة .

العلم ومعرفة النفس.

ألم الفيلسوف الإعلان عن حاجة فطرة (المعرفة) والإنسان بالفطرة يريد أن يعلم، وألم العارف الإعلان عن حاجة فطرة الحب الذي يريد أن يحلق ولم يسترح إلاّ أن يلمس الحقيقة بكل وجوده، والعارف يعتبر معرفة النفس التامة كامنة في (معرفة الله) وأن ما يعرفه الفيلسوف بصورة (أنا) الإنسان الواقعي، فمن وجهة نظر العارف لم يكن (أنا) الواقعي، أنه روح، نفس، تعين و(أنا) الواقعي هو الله، وبكسر هذا التعين يجد الإنسان نفسه الواقعية. يقول محي الدين العربي في فصوص الحكم في فص الشعيبي: إن الحكماء والمتكلمين قد أكثروا القول حول معرفة النفس، ولكن معرفة النفس لم تحصل عن هذا الطريق، وكل شخص ظن أن ما وجده الحكماء حول معرفة النفس هو الحقيقة، فهو قد ظن المتورم سمينا.

إن أحد الأسئلة التي وجهت إلى (الشيخ محمود الشبستري) حول المواضيع العرفانية التي وجدت بسببها منظومة (كلشن راز) الفريدة من نوعها كأجوبة عليها هو السؤال عن (الذات) و(أنا) من أنه ما هو ؟.

ثم سألت مني أن (أنا) ما هو ؟ أخبرني عن نفسي من (أنا) ؟

لما أصبح الوجود المطلق في الأسر يعبرون عنه بلفظ (أنا)

ولما تعينت الحقيقة من التعين أنت قلتها في عبارة (أنا)

أنا وأنت عارضا ذات الوجود ومشبك لمشكاة الوجود

فاعتبر الأرواح والأشباح نوراً واحداً يظهر تارة من المرآة وتارة من المصباح

ثم ينتقد أقوال الفلاسفة حول الروح و(أنا) ومعرفة النفس كما يلي:

كأنما لفظ (أنا) في كل عبارة ... إشارة نحو الروح
ولما جعلت العقل أماما لنفسك ... لم تعرف نفسك جزء من نفسك
فاذهب أيها السيد واعرف نفسك جيداً ... فان السمنة ليست كالتورم (١)
أنا وأنت جاءاً افضل من الروح والبدن ... فان الأثنين جاءا من أجزاء (أنا)
لم يكن في لفظ (أنا) إنسانا خاصاً ... لكي تقول هو الروح الخاصة
كن طريقاً أفضل من الكون والمكان ... فاترك العالم وكن عالماً في نفسك

يقول المولوي:

يامن خسرت (نفسك) في الحرب ... لم تميز الآخرين من نفسك
وأنت على أية صورة تأتي تقف ... لأن هذا أنا ولم تكن والله أنت
تبقى وحيداً من الناس مدة ؟ ... تغرق إلى الحلقوم في الهم والفكر
متى يكون هذا أنت؟لأنك ذلك الأوحد ... الجميل الطيب الذي سكر بنفسه
أنت طائر نفسك،صيد نفسك،شباك نفسك ... صدر نفسك،بساط نفسك،سطح نفسك
إذا كنت ابن آدم فأجلس مثله ... وانظر جميع اذرات في:(نفسك)

إذا لم تكن الروح (أنا) الواقعي من وجهة نظر العارف، ولم تكن معرفة الروح ومعرفة النفس، فالروح مظهر من مظاهر النفس و(أنا) فـ(أنا) الواقعي هو الله وعندما يفنى الإنسان من نفسه وحطم التعينات وغض النظر عنها لم يبق للروح أثر، وعندما تعود هذه القطرة المنفصلة عن البحر إلى البحر وفنت فيه يصل الإنسان إلى معرفة النفس الواقعية،

(١) يشير إلى عبارة شيخ أهل العرفان الأكبر محي الدين عربي المذكورة آنفاً.

فعندئذ يرى الإنسانُ نفسه في جميع الأشياء ويرى جميع الأشياء في نفسه. وعندئذ فقط يطلع الإنسان على نفسه الواقعية.

٨ـ معرفة النفس النبوية: تختلف معرفة النفس النبوية عنها جميعاً، فإن النبي له معرفة إلهية وبشرية بالنفس، فإنه متألم لله ولمخلوقات الله، إلا أنه لا بصورة ثنوية وثنائية النوع وثنائية القطبية، وثنائية القبلة، لا بصورة أن يكون نصف قلب النبي عند الله ونصفه الآخر عند الناس، وإحدى عينيه إلى الله والعين الأخرى إلى الناس، وإن حبه وعطفه، أهدافه وأمنياته موزعة بين الله ومخلوقات الله، لا، أبداً.

يقول القرآن الكريم: (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)(١). فالأنبياء هم أبطال التوحيد، ولم يوجد في عملهم أقل شرك: لا شرك في المبدأ ولا شرك في الهدف والأمنية ولا شرك في التألم. فالأنبياء يحبون العالم ذرة ذرة بسبب أن الجميع منه ومظاهر أسمائه وصفاته.

أنني فرح في العالم بمن العالم فرح به   واعشق جميع العالم لأن جميع العالم منه

إن حب أولياء الله للعالم لمحة من حبهم لله ، لاحب في مقابل حب الله، فتألمهم للناس نابع من تألمهم لله، لا من جذر ومنبع آخر. وإن أهدافهم وغاياتهم وأمانيهم هي درجات الصعود وتصعيد الناس إلى غاية الغايات، أي الله.

ويبدأ عمل الأنبياء من الألم الإلهي الذي يسوقهم نحو التقرب إلى الله والوصول إليه إن هذا الألم بسوط تكاملهم ومحركهم في هذا السفر والطريق الذي يعبر عنه بـ(السفر من الخلق إلى الحق). ولم يجعلهم هذا الألم هادئين لحظة واحدة حتى يوصلهم إلى (قرار آمن) على حد تعبير علي عليه السلام.

إن نهاية هذا السير والسفر هو بداية سفر آخر يعبر عنه بـ(السفر

(١) سورة الأحزاب الآية : ٤ .

في الحق إلى الحق) وفي هذا السفر يمتلئ ظرفهم ويفيض، وينالون نوعاً آخر من التكامل.

والنبي أيضا لم يتوقف في هذه المرحلة، وبعد أن يفيض من الحقيقة، ويطوي دائرة الوجود وعرف الطريق وآداب المنازل ، يبعث ويبدأ سفره الثالث أي سفره من الحق إلى الخلق ويعطي الرجوع ولكن هذا الرجوع لم يكن بمعنى التقهقر إلى النقطة الأولى والانفصال عما حصل عليه ، وإنما يرجع مع كل ما حصل عليه ووصل إليه، وبناءاً على الاصطلاح هو سفر من الحق إلى الخلق مع الحق لابعيداً عنه، وهذه مرحلة تكامل النبي الثالثة .

إن البعثة والدافع اللذين يظهران في نهاية السفر الثاني، يكونان بمثابة ولادة معرفة نفس الناس من معرفة نفس الحق ولادة التألم للناس من التألم لله.

ويبدأ بالرجوع إلى الخلق سفره الرابع ودور تكامله الرابع، أي السير في الخلق مع الحق السير في الخلق لدفعهم نحو الكمال الإلهي اللامتناهي عن طريق الشريعة أي عن طريق الحق والعدل والقيم الإنسانية وإيصال القابليات البشرية اللامتناهية الكامنة إلى الفعلية.

ويتضح من هنا أن ما هو هدف للمتنور هو للنبي منزل من المنازل التي يمر بالناس منها كما إن ما يدعيه العارف يقع في بداية طريق النبي.

يقول (اقبال) في الفرق بين معرفة النفس النبوية ومعرفة النفس العرفانية: (إن النبي محمد (ص) ذهب إلى السماء في المعراج ورجع، ولأحد من شيوخ أهل الطريقة باسم عبد القدوس جنجهي (كلام بهذا المضمون: أقسم بالله لو كنت أنا الواصل إلى تلك النقطة لم أرجع إلى الأرض أبداً).

ويضيف اقبال :

(ربما لايمكن أو توجد كلمات في جميع الأدب الصوفي تميز معرفة النفس بين نوعي معرفة النفس النبوية والصوفية في جملة واحدة كهذه .

إن الرجل الباطني (العارف) لايريد ان يرجع إلى حياة هذا العالم من الهدوء والاطمئنان الذي يجدهما بالتجربة الاتحادية (الوصول إلى الحق ومعرفة النفس العرفانية). وعندما يرجع بحكم الضرورة لم يكن في رجوعه نفع كثير لجميع البشرية. ولكن رجوع النبي له جانب إبداعي ومثمر، يرجع ويرد في مجرى الزمان لغرض أن يسيطر على مجرى التاريخ ويبدع عن هذا الطريق عالماً جديداً من كمال المتطلبات)(١).

لا حاجة لنا الآن بالتعبيرات والتفسيرات العرفانية بأنها صحيحة أو غير صحيحة و ما هو مسلم لدينا أن كل نبي يحمل ألم الله، والألم الذي يؤذي روحه هو ألم البحث عن الله فيعرج إليه، ويصعد، ويرتوي من ذلك النبع فعندئذ يحصل عنده ألم الناس. فإن تألم الناس يختلف عن تألم شخص متنور للناس لأن ألم المتنور عاطفة بشرية ساذجة، انفعال وتأثر، وربما يعتبر ضعفاً بنظر بعض الأشخاص من مثال (نيتشه) ولكن الم النبي ألم آخر لا يشبه أيا من تلك الآلام. كما إن معرفة نفس الناس عندهم تختلف أيضاً. فالنار التي تلتهب في روح النبي نار أخرى.

وصحيح أن النبي يحصل له نفوذ الشخصية قبل كل شخص، لا أن روحه تتحد مع الأرواح وتضم الجميع إليها ، فإنه يتحد مع العالم ويضم العالم إليه، وصحيح أنه يتعذب من همّ الناس (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم)(٢) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً)(٣)، وصحيح أنه يتلوع من جوع الناس وعريهم ومظلوميتهم وحرمانهم ومرضهم وفقرهم ويتألم لذلك إلى حد بحيث لا يتمكن من أن ينام في مضجعه شبعاناً لكيلا يحصل جائعاً في أقصى البلاد (هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا

(١) (احياي فكر ديني در اسلام) ص١٤٣ – ١٤٤ .
(٢) سورة التوبة الآية ١٢٨ .
(٣) سورة الكهف – الآية ٤ .

عهد له بالشبع أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى)(١)، ولكن يجب ألا تحمل هذه على رقة القلب والترحم والعطف الساذج في مستوى مواساة الناس السذج. إن النبي من حيث إنه بشر له في بداية عمله وسلوكه جميع المزايا البشرية (اللون والشكل) عند جميع البشر، ولكن بعد ما يلتهب جميع وجوده بالشعلة الإلهية، تأخذ كل هذه الأمور لونا وصبغة أخرى، صبغة إلهية.

والاختلاف بين من يربيهم النبي والمجتمع الذي يصنعه وبين من يربيهم المتنورون والمجتمعات التي يصنعوها كما بين السماء والأرض.

والاختلاف الرئيسي في أن النبي يجهد لإيقاظ الطاقات البشرية الفطرية، ليلهب الشعور الغامض والحب الكامن: في وجود الناس ويدعو النبي نفسه (مذكراً) يبدع في الإنسان حساسية في مقابل جميع الوجود وينقل معرفته النفسية بالنسبة لكل الوجود إلى أمته ولكن المتنور يوقظ – على الأكثر – الشعور الاجتماعي عند الأفراد ويطلعهم على مصالحهم القومية أو الطبق.

---

(١) نهج البلاغة ، من كتاب الإمام علي عليه السلام إلى وإليه عثمان بن حنيف .

الفهرس

